مذكرات الفتي الشاعر

أحمد سويلم

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الأديب للطبع والنشر والتوزيع

اســـم الـــدار	دار الأديـــب للطبـــع والنشـــر والتوزيـع
اســم الكتـــاب	مذكرات الفتى الشاعر
اسم المـؤلـف	أحمد سويلم
رقم الإيـــداع	(٢٠٢٠/١٧٨٧) بدار الكتب المصرية
الإخراج الفني	دار الأديب .. د. سيد غيث .
تصميم الغلاف	من تصميمات الدار

Facebook: Dar.Aladeb

Email :daraladeeb@Gmail.com

Tel: 002- 01014449164

(الحياة التى لا تخضع لاختبار

لا تستحق أن يحياها الإنسان)

سقراط ..

(قف ..
لا تقعد أو تستسلم
عش منتشقًا فى أقدامك
فإذا بتروا ساقيك
قف .. قف فوق يديك
فإذا شُـلَّت
فعلى رأسك قف
فإذا انفجر الرأس شظايا
قف يا مقهور على ظهرك
فإذا كسروا الظهر
فابحث عن قوقعة أو شرنقة
أو كهف مهجور
وتخلص من هذا الإنسان)

أحمد سويلم ..

هذه المذكرات :

– هل هى سيرة ذاتية..؟

– أم لقطات من الذاكرة البعيدة والقريبة..؟

– أم إضاءات حول بعض المواقف والشخصيات التى لقيتها فى حياتي أحكيها ببساطة وعفوية..؟

لا أدري..

لكن ما أتأكد منه هو أنني حاولت أن أغوص بذهني فى الذاكرة.. فأجد فيها ما يجذبني إلى التوقف والتذكر.. فأمسك القلم وأنبش به هذه الذاكرة وأنقلها لك على الورق.. لعلها تمتعك.. وتضيف إلى معرفتك شيئاً..

وقد دفعني إلى ذلك أصدقاء أحباء.. كنت أجلس إليهم وأحكي.. وأحكي.. وفى نهاية كل لقاء يصرخون فى وجهي: لماذا لا تكتب هذه الحكايات الطريفة.. ولماذا لا تحكي عن هذه الشخصيات التى التقيتها.. إنها حكايات تتميز بالإمتاع وتحكى تاريخا قد لا يعرفه الكثيرون.

هؤلاء الأصدقاء:

– الأستاذ: سليمان القلشي الكاتب الصحفي والناشر..

– الأستاذ: محمد هشام عبية الكاتب والصحفي مدير دار دلتا للنشر.

– الأستاذ: حاتم صادق صاحب القلم المدقق فى التراث العربي العريق.

وكنا عادة ما يضمنا لقاء أسبوعي فى دار دلنا للنشر التى شرفت بأن كنت مستشارها الثقافي.

وينتهي كل لقاء.. وأفكر.. وأفكر.. وأتساءل..

– هل أستطيع أن أنقل هذه المواقف ولقاءاتي مع الشخصيات الراحلة على الورق فى أسلوب ممتع شائق يعجب المتلقي.؟

– وهل هناك فائدة يجنيها القارئ بعد قراءاته لهذه المواقف والحكايات.؟

****

وقد أشركت أصدقائي الأحباء فى الإجابة عن هذين السؤالين.. فزاد إصرارهما على البدء فى الكتابة.

ولكوني شاعراً – أتوق إلى التفرد فى الإبداع بقدر طاقتي – وجدتني فى موقع المسئولية الأدبية أمام أصدقائي الثلاثة الكرام.

ورأيت أن أقسم هذه المذكرات إلى أكثر من فصل..

الأول: يتناول بعض المواقف فى طفولتي (حتى سن ١٦ سنة) فى بلدنا بيلا كفر الشيخ.. وتتميز هذه المواقف ببراءة الدهشة والطرافة والبسمة الصافية.. والطفولة التى لا تحمل إلا حب الحياة والناس..

والثانى: يتناول تجربتي فى القوات المسلحة وعنوانه (شاعر تحت السلاح) فقد كانت تجربة ثرية لمدة ست سنوات انعكست فى شعري وحياتي.

والثالث: أحكى فيه جانباً من وجودي فى الحياة الثقافية والحياة العامة.. ومشاركتي الإيجابية وصعوبات ممارسة الحياة العملية.. وكيف تخطيت وتجاوزت هذه الصعاب.

والرابع: أروي فيه بعضا من تجاربي فى السفر لحضور مؤتمرات أو مهرجانات شعرية وكيف كنت حريصا على تمثيل شعراء مصر تمثيلا جيدا.

والخامس: يبدأ مع نزوحي إلى القاهرة – الصاخبة – فى عام ١٩٥٩ والتحاقي بدار القلم الذى كان يملكها خالي الناشر محمد المعلم.. والذي كان له فضل كبير فى تثقيفي على هذه المهنة (مهنة النشر) وعلى تعرفي بالوسط الأدبي والثقافي.. وبالشخصيات الكبيرة التى كنت أحلم بلقائها بعد أن قرأت لها.. وهذه المرحلة كتبتها من خلال لقاءاتي بشخصيات أثرت فى حياتي.. ورحبت بإبداعي وصارت بيني وبينها صداقة عميقة يسودها التقدير والاحترام.

والسادس: أردت أن يتعرف قارئي الكريم على مسيرتي الإبداعية وهى تجربة حياة أخلصت فيها إلى هذا الفن الجميل – الشعر – لكى أنجز فيه مشروعي الذى عشت من أجله.. متمنيا أن يلقي تقديرا بقدر إخلاصي فى إنجازه.

وهناك ملاحظة مهمة فى هذا السياق.

فقد صدرت الطبعة الأولى فى بابين كبيرين.

الأول: ذكريات الطفولة.. والثاني لقاءاتي مع القامات العالية.. وتلقيت آراء أصدقائي الذين حرضوني على استكمال هذه المذكرات وإضافة الكثير من حياتى وتجاربي وها أنذا أستجيب طوعَا لقرائي وأصدقائي بهذه الإضافات التى أراها تشبع نهمهم.. وتنال تقديرهم.

إذن..

أبدأ بتوفيق من الله هذه المهمة الصعبة.. متمنياً أن يرضي عنها القارئ الكريم.. كما أسعدني من قبل برضاه عن منجزي الشعري عبر أكثر من عشرين ديواناً.

أحمد سويلم ..

الفصل الأول

مذكرات طفولة

هل تختلف الطفولة من جيل إلى آخر..

هل طفولتي منذ أكثر من نصف قرن تتشابه مع طفولة اليوم ؟

الإجابة.. طبعاً هى تختلف فى جوانب كثيرة.. وقد تتفق أيضاً فى جوانب أخرى.

كان زماننا مختلفاً عن زماننا اليوم..

كان زماناً بسيطاً.. كل شئ فيه سهل وبسيط.. مشاكله محدودة.. خاصة فى هذا الريف الذى عشت فيه.

الناس . زمان، فى الريف . يصحون مع طلعة الشمس.. يتوكلون على الله منهم من يذهب إلى الحقل يسوق ماشيته.. يستقبله الندي والخضرة والنسيم العليل.. والمياه الجارية.. بكل الفرحة والسعادة.

وعندما يصل الفلاح إلى الحقل يتحسس النبات الذى زرعه بالأمس ويرعاه ويعتني به.. حتى ينضج.. ثم يجنيه.. ويعيش من ثمنه هو وأسرته.

كان الفلاح فى زماننا مرتبطاً بأرضه ارتباطاً قوياً.. لا شئ يشغله عن رعاية هذه الأرض.. فهى مصدر رزقه.. وهى حياته وتفكيره ليل نهار.

وكان غير الفلاح يذهب إلى عمله أيضاً.. ويعمل طول يومه بإخلاص وضمير.. ويراعي الله فى كل شئ..

الصانع فى مصنعه..

والعامل فى شركته..

والمدرس فى مدرسته..

والتلميذ فى مدرسته..

وأولا وأخيراً الأب والأم فى بيتهما.. يحرصان دائما على تربية ومراقبة أبنائهما حتى يشبوا على الاجتهاد والنجاح والتفوق.

وكنا تلاميذ صغاراً.. نعمل حساباً للمدرس وحساباً للأب والأم.. ونتنافس فى التفوق والمذاكرة.. ونتفاخر بالنجاح.. ونحزن لو قلت درجات أي مادة فى شهادة المدرسة.. ونخاف معاقبة الأب والأم.. وهذا العقاب يتراوح بين نظرة اللوم والعتاب ويتصاعد حتى الضرب.

ثم.. لم يكن فى زماننا ما يأخذنا من أنفسنا أو من مذاكرتنا.. فلا يوجد هذا النادي الذى نلتقي فيه صحاباً وأصدقاء.. ولا يوجد تليفزيون يجعلنا نتسمّر فى مقاعدنا أمامه.. ولا يوجد كمبيوتر يربطنا أمامه بالساعات.. ولا توجد السينما التى نتسلى بأفلامها.. ولكن كان الهدف الأسمى لنا هو المذاكرة وإشباع الهوايات فى نطاق المدرسة.. أو فى ساحة البلدة التى شهدت مباريات لكرة القدم بين تلاميذ المدارس.

لهذا أقول إن زماننا كان مختلفاً.. وبالتالي كانت طفولتنا مختلفة بل أكاد أقول إنها طفولة تتحدى الظروف كلها من أجل المعرفة والتحصيل فكثيراً ما كانت مكتبة المدرسة هى المجال المعرفي الوحيد الذى يلجأ إليه العقل.

من الظلم إذن أن نساوى طفولة الأمس بطفولة اليوم وأن نقارن زماننا القديم بهذا الزمان.

وفكرت فى كتابة بعض الذكريات عن هذه الطفولة التى قضيتها فى بلدي "بيلا ـ كفر الشيخ" حتى سن السادسة عشرة.. فبدأت فعلاً أنحت فى ذاكرتي وأختار تلك المواقف والذكريات التى إن قرأها طفل اليوم حسبها من قبيل الخيال البعيد عن الواقع.. بالرغم من أنها ـ والله العظيم ـ واقع بالفعل.. وحادث خلال طفولتي..

وبدأت فعلاً فى كتابة بعض المواقف والذكريات ثم وضعتها جانباً وشغلتني عنها مشاغل الحياة الضاغطة.

وهاأنذا أقدم إلى هذه المذكرات المختارة حرصت أن أكتبها ببساطة وعفوية . فبعضها يثير الدهشة وبعضها الآخر يثير الابتسامة . وقد نلمس فى بعضها الإصرار والتحدي.. وفى بعضها الآخر التصميم على تحقيق الهدف.. وهذا وذاك فى النهاية يشكل الشخصية.. ويميزها.

وليسمح لي القارئ أن أتحدث بصيغة الغائب وأعبر عن نفسي (بالفتي).. وفى ذلك حرية أكبر فى التعبير.. وبعد عن النرجسية والمبالغة..

أتمني أن أكون قد وفقت فى تقديم هذه المذكرات الشخصية.

البداية

قدر للفتى أن يكون أكبر إخوته الصغار.. فقد كانت أمه هى الزوجة الثانية لأبيه الشيخ بعد وفاة زوجته الأولي التى تركت أبناء كبارا.. ولدين يعملان فى مهن حرة.. وبنتين تعملان فى البيت الكبير.. ثم تزوج الشيخ بأمي وكانت صغيرة السن ليرزق منها بأربعة أبناء ثلاثة أولاد وبنت واحدة.

هذه هى حسبة الأسرة الكبيرة التى يضمها بيت من طابقين..

وكان الوالد أحد مشايخ الطريقة الأحمدية.. وتيمناً بسيدي أحمد البدوي أطلق على الفتي اسم (أحمد)

فتح الفتي عينيه منذ نشأته على حلقة الذكر التى كان يقيمها أبوه الشيخ بمساعدة أحد أبنائه الكبار فى صحن البيت.

وتستهويه الأناشيد الدينية.. ويحفظ عن ظهر قلب تلك (المنظومة الشعرية) فى مديح النبي (ص) ويقف إلى جوار الذاكرين . طفلاً قزماً . يذوب معهم فى الذكر.

هذا المناخ الخاص حفزه منذ طفولته على طرح أسئلة كثيرة تتعلق بالدين والخالق العظيم.. وأمور الحياة المختلفة.. وكان أبوه لا يضنّ عليه بالإجابة.. والمعرفة..

كان بيتاً كبيراً.. وكان الوالد معروفاً فى البلدة.. وكثيراً ما كان يستضيف أشهر قراء مصر للقرآن الكريم.. ويبيتون عنده فى البيت.. بل كان الفتى يجد متعة كبيرة فى الجلوس إليهم وهم يتحدثون فى أمور كثيرة مع أبيه.

طبع هذا المناخ الروحي الجميل جو البيت بطابع خاص.. فالكل يؤدي فريضة الصلاة.. الأولاد يذهبون إلى جامع (المعداوي) على بعد خطوات من البيت.. والبنات يصلين فى البيت.

ويتذكر الفتى أنه كان حريصاً على الذهاب إلى المسجد مبكراً عند كل صلاة ويتحين فرصة تأخر المؤذن فيسرع إلى سطح المسجد ويرفع الأذان ويلون صوته وينغمه كما يفعل المؤذن.. ويتذكر مرة أن أحد زملائه قرر أن يسبقه إلى سطح المسجد.. وأخذ يزاحمه فى سلم المئذنة الملتوي الضيق حتى وصلاً معاً إلى السطح.. وحلاً لهذا الموقف.. تقاسماً رفع الأذان معاً.

وكان الناس من حوله سعداء لأنه ابن هذا الشيخ الذى يحترمه الجميع.. ولم يحل صغر سنه دون ممارسة هذه العادة التى أحبها وهى رفع الأذان وإقامة الصلاة.

وفجأة.. والفتى على مشارف العاشرة من العمر . يرحل أبوه الشيخ عن الدنيا.. ويشعر الفتى . بفقد أبيه . أنه فقد موجهاً ومرشداً ومعلماً.

وينظر الفتى حوله.. فيجد نفسه أكبر إخوته.. وبجانبه تلك الأم الصغيرة السن وإخوته الصغار.. وأمامه إخوة غير أشقاء كبار يختلفون فى مشاعرهم وعواطفهم نحو أسرته الصغيرة.

أحلام كبيرة فى عقل صغير

تصدع البيت الكبير بعد غياب الأب.. وثارت مشاكل كثيرة حول حقوق الأطفال الصغار وأمهم وكان الحل الوحيد أن تخرج الأم بأولادها إلى بيت آخر.

لم يكن البيت الآخر مثل البيت الكبير.. فقد كان بيتاً بسيطاً مبنياً من الطوب اللبن.. تتساوى أرضيته مع أرض الشارع الخارجي.. فقط يفصل بينهما عتبة من الخشب.. ثم يفتح الباب الخارجي على صالة ضيقة فيها كنبة فلاحى.. ومنضدة خشبية قديمة نقلت من مطبخ البيت الكبير.. استخدمهاً الفتى مكتباً للمذاكرة مع إخوته.. وعلى اليسار غرفة النوم بدولاب الأم القديم.. والسرير ذو العمدان الحديد والناموسية البيضاء.. ثم تؤدي الصالة إلى فناء واسع يضم غرفتين الأولى لخزين الطعام.. والأخرى تضم فرناً لصنع الخبز.

لا أريد أن أصف بساطة البيت أكثر من هذا.. يكفى أن أقول إن الفتى كان يذاكر على لمبة جاز (نمرة ٥) بشعلة بسيطة.. واستطاع هو وإخوته أن يواصلوا دراستهم فى هذا الضوء الخافت وكان قلب الأم هو المصباح القوى الذى يضئ لهم ويشجعهم على التفوق.

رفضت الأم أن تتزوج . برغم صغر سنها . وصممت على تربية صغارها.. رفضت أيضاً أن يكون أولادها صبيانا فى مهن مختلفة.. وكانت هذه إحدى المشاكل التى واجهتها مع الإخوة الكبار.

غرست الأم فى قلب فتاها البكر حب الكفاح.. وكان لها أخ صاحب دار نشر كبري فى القاهرة وضعته نموذجاً أمام عينى فتاها.. ووعد الخال الفتى لو حصل على الثانوية العامة أن يلحقه بعمل إلى جواره فى القاهرة.

الطريق طويل.. أمام الأم وأولادها.. ساعدها أخوها مادياً.. إلى جانب الفتات الذى كانت تحصل عليه من حقوق أولادها لدي الإخوة الكبار..

فجأة هاجم الفتى شيطان الشعر.. جذبه كثيراً من مذاكرته.. لكنه سرعان ما كان يتذكر مسئوليته القادمة فيخفى أوراقه وقصائده.

ويتذكر كيف كانت أمه تدخل عليه وهو يجلس متربعاً على السرير وأمامه حقيبته الخشبية متخذاً منها متكئا لكتابه الذى يذاكر فيه . وتدخل الأم . وهى مثل كل أمهات هذا الجيل أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة.. لكي تطمئن عليه.. لكن الفتى كان يندهش حينما تدخل عليه وهو يكتب الشعر.. فتدرك أمه ذلك وتصيح فى وجهه: مش وقته يا ابني.. ذاكر الأول وبعدين اكتب الشعر اللي بيعطلك ده.. يندهش الفتى: كيف أدركت الأم الأمية أنه يكتب الشعر ولا يذاكر.. لابد أن إحساس الأم بولدها أعمق وأصدق كثيراً من أي شئ آخر.

تعرف الفتى على صديق قريب من بيته فى مرحلته الدراسية.. كان الفتى متفوقاً.. دعاه الصديق ليذاكر معه فى بيته.. سمحت له أمه.. لم يكن بيت صديقه مثل بيته البسيط.. كانت فيلا من دورين.. مضاءة بمصابيح غازية ضخمة تحافظ على سلامة العينين.. سلم الفتى بما فرض عليه.. فصديقه يستفيد من تفوقه.. وهو يسعد بالضوء الذى يجعله مستمتعاً بالمذكرة.

قالت الأم له ذات صباح:

– لا يشغلك شئ عن المذاكرة.. وربنا موجود وعارف أنا قد إيه بادعيلك من قلبي تخلّص الثانوية.. ونروح كلنا مصر.

مصر.. حلم الفتى بمصر.. القاهرة.. إذن سيأتي يوم يركب القطار من محطة بيلا براري إلى محطة القاهرة.. إنه يسمع كثيراً عن العاصمة.. ماذا إذن يحمل له الغد.. وكم يبقي من السنوات حتى يحقق هذا الحلم.

وضع الفتى حلمه جانباً أمام ناظريه.. كأنه جائزة للتفوق.. وبدأ يلتهم الكتب ويسهر ليلاً.. ويصلي ويدعو الله.. حتى يتحقق الحلم.

الفتى.. والبيت البسيط

لم يكن أمام الفتى إلا أن يجتهد فى مذاكرته.. وكانت أمه تمثل الحصن المنيع الذى يهيئ له جو المذاكرة.. ويبعده عن أي صعوبات أو مشاكل.. لكنه مع ذلك كان يحس بمعاناة الأم التى تحملت عبء تربيته وإخوته.. ورفضت أن تتزوج بعد وفاة أبيه من أجل مستقبل أولادها الصغار.

كان الفتى معتاداً على الاستيقاظ فى الصباح الباكر.. ثم يذهب إلى المدرسة ليعود ويجلس إلى كتبه حتى تتعب عيناه.. فينام.

أما الأيام التى لا يذهب فيها إلى المدرسة فقد اعتاد أيضاً أن يصحو مبكراً.. ثم يلبس جلبابه الذى يحتوى على جيبينْ عميقين يميناً ويساراً[1] فيضع فى أحد الجيبين كتاباً وفى يده اليسري كتاباً آخر.. وفى الجيب الآخر قطعاً صغيرة كثيرة من الخبز المحمص الجاف (المقرمش) ثم يبدأ رحلة المذاكرة على طريق سكك حديد الدلتا ابتداء من بلدته بيلا.. حتى تتعب قدماه من المشي.

كانت رحلة الذهاب يلتهم فيها كتاباً مقرراً.. ورحلة العودة يلتهم فيها كتاباً آخر.. ويقتات طوال الرحلة بالخبز المقرمش.

وكانت الرحلة تستغرق عدة ساعات يستمتع فيها بالطبيعة الممتدة يميناً ويساراً.. وفى نهاية رحلة الذهاب يستريح فى ظل شجرة لبعض الوقت ثم يستأنف رحلة العودة إلى بلده فى سعادة.

ذلك كان برنامجه اليومي فى أيام ما قبل الامتحان.. وقد يشاركه بعض الأصدقاء تلك الرحلة التى تتكرر كل يوم حتى موعد الامتحان.

أما فى يوم الجمعة من كل أسبوع.. فهو يوم الراحة حتى صلاة الجمعة فقط.. لكن الفتى وإخوته كانوا يقومون بواجب آخر للأم العظيمة..

كان يوم الجمعة هو يوم صناعة الخبز (الخبيز) فى فرن البيت.. ولأن هذا الفرن البلدي يحتاج إلى كمية من القش والحطب لتشتعل فيه النار فقد كان الفتى يقود إخوته فى الصباح الباكر لكي يحوَّلوا كوم القش والحطب إلى عدد كبير من (الربط) فيسهل على الأم أن تأخذ ربطة أو أكثر من القش وتلقيها فى جوف الفرن ليشتعل ويزداد اشتعالاً.

وكان الفتى وإخوته سعداء بهذا العمل الأسبوعي.. وكانت الأم تصنع لهم فى الفرن – لقاء هذا التعاون الجميل . هذا الخبز الذى (يتقمَّر) فى النار ويحتوى على البيض أو السمن..

---

(١) يسمى هذا الجيب العميق فى الريف (سيالة)

وكان هذا هو الطعام المفضل للإخوة فى هذا اليوم من الأسبوع.

أما الأيام الأخرى فكانت الأم تتحايل من أجل توفير الطعام.. فحيناً تطبخ الأرز وتمزج به عدداً من البيض المقلي.. ويأكل الجميع أرزاً ببيض أو تطبخ الكشري من العدس الأصفر مع الأرز.. إلى جانب تربيتها لعدد من الطيور مثل الدجاج والبط والوز.. وكثيرا ما كان الفتى يدخل على الأم فى المطبخ.. ويحضر رغيفاً من الخبز

ويطلب من الأم أن تغمسه فى صلصة الطماطم الساخنة.. ويستمتع بهذا المذاق الطيب.. ثم يسرع إلى المذاكرة..

كانت الحياة بسيطة برغم المعاناة.. طيبة برغم كل المرارة التى كانت الأم تشعر بها.

براءة الدهشة

راقب الفتى بشوق شديد أخاه الأكبر غير الشقيق وهو يثبَّت جهاز الراديو الكبير فى مكانه المرتفع.. لقد ظل أخوه طوال اليوم يحفر فى الحائط السميك حفرة بقدر حجم هذا الجهاز العجيب.. وها هو الآن يضع الجهاز.. ثم يدلىَّ منه السلك الذى يتصل بالبطارية المشحونة.. وها هو يسمي بالله ثم يدير بأصابعه أزراراً معينة.. فإذا صوت يخرج من هذا الجهاز العجيب يغني: محلاها عيشة الفلاح.. صاح أخوه فى سعادة: الله أكبر.. ده عبد الوهاب يا أولاد.. اندهش الفتى وتساءل فى نفسه: كيف عرف أخوه الأكبر اسم هذا المطرب.. لابد أنه سمعه من قبل.

جلست الأسرة كلها تستمع إلى هذه الأغنية.. تخيل الفتى عبد الوهاب هذا فى الحقل يمسك بآلته الموسيقية ويجلس وسط الفلاحين يغني لهم.. محلاها عيشة الفلاح.. ما أجمل هذا الخيال.

أغلق الأخ الأكبر جهاز الراديو بعد انتهاء الأغنية.. وبدأ يعطي تعليمات مشددة بعدم الاقتراب من هذا الجهاز.. ثم انصرف إلى عمله.. وانصرف باقي الأسرة إلى داخل البيت.. ولم يبق غير الفتى غارقاً فى دهشته وتساؤلاته.

تطلع الفتى إلى أعلا حيث يوجد الجهاز فى مكان مرتفع فوق الكنبة الكبيرة.. لكن.. تمني الفتي حتى لو لمسه بيديه.. ولم لا.. لن يحدث شئ.. إذن عليه أن يتأكد أولا أن أحداً لا يراه.. تذكر تعليمات أخيه المشددة وتحذيره بعدم الاقتراب من الجهاز.. هاجمه هذا الخاطر الملحّ أيضاً أن يصل إلى الجهاز وليكن ما يكون.

تلصص فى خفة ليتأكد من انشغال الجميع داخل البيت.. ثم أسرع وصعد الكنبة الكبيرة.. فوجد الجهاز أمام وجهه تماماً.. تحسسه بيديه.. إن إطاره مصنوع من الخشب.. وله شاشة ذات ملمس خشن.. يعلوها جزء زجاجي مرقم وفيه مؤشر.. ثم أمامه أزرار ثلاثة.. تري أي الأزرار كان أخوه الأكبر يحركه ليستمع إلى عبد الوهاب.. انقضَّت عليه تعليمات أخيه المشددة.. سأل نفسه: ولماذا لا أحاول مثل أخي وأسمع عبد الوهاب.

أخذ الفتى وقتاً لحسم الصراع بين تعليمات أخيه ورغبته فى المعرفة.. انتصرت رغبته أخيراً.. مد أصابعه المرتعشة إلى أول الأزرار.. وجده يتحرك بعد أن سمع تكة صغيرة.. أدار الفتى الزر قليلاً فإذا بصوت يخرج من الجهاز يقول: هنا القاهرة.. انزعج الفتى فأسرع بإغلاق الجهاز.. لم يكن عبد الوهاب يغنى.. قال لنفسه: لابد أنه ترك الفلاحين فى الحقل وركب القطار إلى القاهرة.

ماذا يفعل الفتى.. انتظر قليلاً.. ألحت عليه رغبته مرة أخرى.. عاود فتح الجهاز فسمع صوتاً نسائياً يغنى: (يا عطارين دلوني.. الصبر فين ألاقيه).. علت وجهه دهشة مستفزة.. حاول أن يتبين ملامح هذه المرأة التى تغنى.. لكن كيف.. وجد فى أعلا الجهاز فتحة صغيرة.. لابد أنه يستطيع أن ينظر من خلالها.. شب فوق أطراف أصابع قدميه ليضع عينه اليمنى على الفتحة ويغمض عينه اليسري.. لكنه لم ير أحدا وجد ليلاً أسود إلا من نقطه ضوء حمراء داخل الجهاز.. زادت دهشته.. لابد أن المرأة تغنى

وراء حجاب.. لأنها امرأة.. فى أثناء ذلك انتهت الأغنية.. ثم علا صوت يعلن عن أغنيه أخرى لعبد الوهاب تقافز الفتى سعيداً فوق الكنبة.. إنه عبد الوهاب.. لابد أنه يستطيع الآن أن يراه من خلال الفتحة.. لأنه رجل.. لن يغنى من وراء حجاب.. بدأت الأغنية: (القمح الليلة).. شب مرة أخرى فوق أطراف أصابع قدميه.. ثبت عينه اليمنى فوق الفتحة.. لكنه لم ير شيئا أيضا !.

. ماذا جري..؟

سأل الفتى نفسه.. ومن أين يأتي هذا الصوت.. وأين عبد الوهاب هذا بل أين المرأة التى كانت تغنى.

حزن الفتى لأنه لم يجد إجابة عن هذه التساؤلات.. أغلق الجهاز بعصبية غاضبة.. تكور فوق الكنبة فى كآبة شديدة.

هل يسأل أخاه الأكبر عندما يعود إلى البيت.. هل يحكي له ما فعله.. ظل فى حيرته حتى أخذته سنة من النوم.. فنام تحت الجهاز.. واستراح من وخز الأسئلة.

ندوة الشيخ عبد الهادي

البيت.. المدرسة.. المسجد.. ثم فى الإجازة ملعب الشارع.. تلك كانت الأماكن التى عرفها جيل الفتي.. لم يكن يوجد أندية.. ولا ساحات شعبية.. ولا مكتبات عامة.. ولا سينمات ولا مسارح.. ولا تليفزيون.

يتذكر الفتى أن أول راديو دخل إلى بلدته الريفية كان لدي البيت الكبير الذى يتصدر الميدان الذى به بيت أبيه.

كان صاحب هذا البيت وأولاده تجاراً للسمك.. يصطادونه ويبيعونه فى دكاكين البيع.. وحينما أحضر صاحب البيت الراديو وضعه على نافذة الطابق الأعلى وفتحه وجعل صوته عاليا لكي يسمعه الناس فى بيوتهم.

وكان الفتى يسرع محافظاً على الصلوات فى المسجد.. وكان الشيخ عبد الهادي عيد يقيم ندوة يومية تبدأ من بعد صلاة العصر حتى يؤذن المغرب.. ولم تترك الندوة حدثاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو حادثة إلا ودارت حول ذلك مناقشات حرة.

تعلم الفتى أدب الحوار والنقاش من هذه الندوة رغم صغر سنه.

وكان صاحب الندوة يفخر بنفسه بأنه لا يحمل أي شهادات سوي شهادتين: أنه مسلم.. وبالرغم من ذلك كان الرجل قارئاً مثقفاً.. غرس فى الشباب حب القراءة والمعرفة.. وكان ضعيف النظر ويبرر ضعف نظره بأن العين من كثرة القراءة والتهام الكتب ضعفت.. وأفرغت دموعها..

وكان هذا الشيخ يجيب بعلم ومعرفة عن أي سؤال.. كان يشرح مقرر التاريخ المعاصر الذى يدرسونه للفتى فى المدرسة.. ويشرح الجغرافيا والنصوص والنحو.

وحينما أعجب الشيخ بالفتى.. كلفه هو وصديق له بالاستماع إلى نشرة أخبار الثانية والنصف فى الراديو الذى يمتلكه البقال بجوار المسجد.. ثم يسرعان إلى صلاة العصر.. ثم حينما تبدأ الندوة يبدأ الفتى بسرد الأخبار يوماً وصديقه يوماً آخر.

ولأن الفتى كان يخشى أن يظهر أمام الحاضرين بعدم الاستيعاب.. فقد درب ذاكرته على حفظ الأخبار وعدم النسيان خشية أن يتدخل صديقه ويكمل ما نسيه الفتى.

لقد كان الشيخ عبد الهادي يغرس فى الفتى وأصدقائه الفهم والاستيعاب فلم يكن يكتفي أن يسرد الفتى الأخبار التى سمعها وإنما كان يبدأ حواراً ويصر أن يشترك الفتى فيه برأيه.

تكون لدى الفتى ذلك الحس السياسي ووضوح الرؤية بالقدر الذى يتيحه الإعلام المسموع.. وما يقال أيضاً فى المدرسة.. وما يستمع إليه من خطب وطنية فى طابور الصباح.. ولم يكن شعره سوى ترجمة لكل هذا فى البداية.

ومرة أراد الفتى أن يداعب الشيخ عبد الهادي فقال له:

. يا شيخ نحن نستمتع بحلقات ألف ليلة وليلة فى الراديو.. وأيضاً بقراءة بعض السير الشعبية التى كانت تروي قديماً قبل أن تدون.. أليس لديك سيرة شعبية تستطيع أن ترويها لنا ونستمتع بها؟

ابتسم الشيخ وصمت قيلاً ثم قال:

. صلوا على النبي.

كان يا ما كان فى سالف العصر والأوان..

وبدأ يحكى الشيخ.. وكان يخصص نصف ساعة من وقت الندوة لاستكمال حلقات الحكاية الشعبية.. ويتذكر الفتى كيف كان الجميع مشغوفين بما يحكيه الشيخ.. وظل يحكي ويحكي لأيام طويلة لا يذكرها الفتى.

وحينما حصل الفتى على الثانوية العامة وأعد العدة للرحيل إلى القاهرة.. أخبر الشيخ بذلك وتأثر الشيخ بافتقاد الفتى فى ندوته.

يتذكر الفتى الكلمة الأخيرة التى لا تزال ترن فى سمعه.. قال الشيخ:

–لن نفتقدك يا ولدي ستكون سفير الندوة فى مصر (القاهرة) وحينما تزورنا فى أي إجازة ستجدنا فى انتظارك لتحكى لنا عن مصر.

صندوق الحكايات

كان الفتى يسرع مع أصدقائه إلى هذا الرجل الذى يحمل على ظهره صندوق الدنيا[1].. يمنحه كل منهم مليماً أو مليمين.. فيضع أرجل الصندوق على الأرض.. ويجلسهم على دكته الخشبية ثم يدخل رءوسهم تحت غطاء ناظرين من خلال عين زجاجية إلى هذا الشريط المصور المصحوب بسرد حكاية على لسان صاحب الصندوق..

أطلقوا عليه صندوق الدنيا.. أو صندوق الحكايات.. ولابد أن ما يخترعه صاحب الصندوق من حكايات تصاحب الصور.. أثر فى تنمية خيال الفتى.. وتنمية عقله أيضاً.

وكثيراً ما كان يعود إلى البيت ويحكى ما رآه فى هذا الصندوق بأسلوبه الخاص.. وقد يزيد عليه أو يغير من أحداثه.

فكر الفتى أن يخترع لنفسه صندوقاً خاصاً.. ويدعو إخوته وزملاءه لمشاهدة ما فى هذا الصندوق.

ما هى الأدوات التى يريدها؟

حددها الفتى فى علبتين من علب الأحذية المصنوعة من الكرتون.. وسلك صلب يركب فى كل علبة بحيث يسهل لفه وإدارته يميناً أو شمالاً.. ومجموعة من الصور التى يقصها من المجلات للممثلات والممثلين.. وعجينه لصق مكونة من الدقيق الأبيض الممزوج بالمياه.

أخذ الفتى يلصق الصور بعناية شديدة حتى كون منها (شريطاً) طويلاً طوله نحو خمسة أمتار.. ثم وضع إحدى العلبتين يميناً وركب فيها السلك الصلب ولصق طرف الشريط الأول به.. ثم أدار السلك داخل العلبة نحو اليمين فالتف الشريط كاملاً حول هذا السلك.. ثم أحضر العلبة الأخرى وجعلها بمواجهة العلبة الأولى ولصق طرف الشريط الأخير بالسلك.

أصبح من اليسير الآن تحريك الشريط يميناً أو يساراً.. بقي فقط أن يخترع حكاية أو كلاماً يناسب الصور.

لم يكن الأمر صعباً عليه فهو يدعى أنه يمتلك خيالاً خصباً..

أفلح الفتى فى اختراع الكلام المناسب.. ودعا إخوته وزملاءه وبدأ يدير الشريط ببطء بعد أن ثبَّت العلبتين فى مكانين متواجهين وأخذ يحكي ويحكي كما كان صاحب صندوق الدنيا يحكي.

---

(١) يسمى أيضاً فى الريف: صندوق العجب

كانت تجربة طريفة سعد بها الفتى وأسعد إخوته وزملاءه وظل يبدل فى هذا الشريط كلما شعر أنه صار مملاً وأن (المتفرجين) يطلبون الجديد.

تري أكان هذا إرهاصاً لشئ فني..

أهو فن السينما..

أم هو الفيديو..

أم هو خيال مبدع..

هكذا جرب الفتى حاسته الفنية لكنه فى النهاية انحاز إلى فن الشعر باعتباره هذا الفن الذى يعبر مباشرة عن إحساس الإنسان ومشاعره

نبضة قلب فى غير وقتها

لا يذكر الفتى فى طفولته أن إحساسه العاطفي تحرك فى داخله لغير أمه.. وأخته الصغيرة.. وأختيه الكبيرتين.. ويتذكر أيضاً أن أخته الكبيرة كان تكن له حباً خاصاً.. وتؤثره بعطفها وحنانها.. ولا ينسي الفتى أنها هى التى أيقظت ذهنه ووجدانه على الحكايات والأساطير.. وكثيراً ما كان يتخيل ما ترويه أخته واقعاً.. فيبيت طوال الليل يحلم بما تحكيه.. أو يتملكه الخوف فلا يغمض عينيه..

وكثيراً ما كانت أخته تخفي نفسها فى عباءة أبيه السوداء وتداعبه كأنها عفريت مخيف.. فيشعر بالخوف ويصرخ.. وسرعان ما تخلع الأخت هذا القناع الأسود وتضحك ويضحك معها وتضمه إلى صدرها.

ويعترف الفتى أنها بهذه الحكايات والمداعبات استطاعت أن تستفز خياله وهو صغير وكثيراً ما كان يستمع مثلاً إلى حكايات ألف ليلة وليلة فى الراديو.. فيتخيل قصر شهريار.. والجزيرة المسحورة.. وعلاء الدين.. وسندباد البحري وغيرها من الشخصيات والأحداث ويسرح بخياله.. ويطلب من أخته بعض التفسيرات التى لا يقدر عليها عقله.. فتفسرها له ببساطة.

ويتذكر أيضاً أن طبيباً يونانياً كان يسكن فى مواجهة البيت الكبير فى الطرف الأخر من الميدان واسمه (جورجي) وكانت له أخت فى سن أخته الكبيرة.. وكثيراً ما كانت تطلب أخت الطبيب من أخت الفتى أن ترسله إليها لأنها تجلس وحدها.. فتلعب معه وتحكي له بلسانها الملتوي بالعربية.. وتغني له أغنية ليلى مراد (الدنيا حلوة نغمتها حلوة) وكان صوتها جميلاً.

أما علاقته بأمه فكانت أكثر عمقاً.. فبالرغم من أنها أمية.. فقد استطاع أن يحفَّظَها بعض سور القرآن الكريم مثل سورة ياسين والواقعة وقصار السور.. ويقرأها معها.. ثم تصلي بهدوء شديد وصعوبة فى النطق.. وكان يعمل حسابها فى كل شئ.. حتى لا تغضب عليه لأنه كان شديد اليقين أن الجنة تحت أقدام الأمهات.

وحينما انتقلت الأسرة الصغيرة إلى بيت آخر بعيد عن البيت الكبير.. قلت صلة الفتى بأخته وبأخت الطبيب.. ربما لأنه كبر قليلاً واهتم بدراسته.. لكنه لا ينسي حينما كان يسير مع أصدقائه فى طريقه إلى المدرسة.. وعلى قمة الشارع الذى به بيته.. وبالتحديد فى الطابق الثاني.. حيث توجد نافذة فتحت قليلاً.. بحيث ينظر إليها من يسير فى الشارع من أسفل كأنها مثلث حاد الزوايا.. ويتذكر جيداً أن هذا المثلث كان يطل منه وجه مبتسم لفتاة سمراء.. وحينما كان الفتى وأصدقاؤه يصلون إلى هذا المكان يتطلعون جميعاً إلى أعلا.. ويتصور كل منهم أن هذا الوجه يبتسم لكل منهم دون الآخر.

عاش الفتى هذا الوهم كثيراً.. إنها تبتسم له.. لكن من هى.. وبنت من.. ولماذا تبتسم له هو بالتحديد.. إنه لا يعرف.. ولعله أدرك أن شيئا فى داخله بدأ يتحرك لكن بصورة مختلفة وإحساس مختلف عن كل ما يحسه لأمه ولأخته.. وحتى لأخت الطبيب اليوناني.

لكن هل أيقظ هذا الوجه شيئا حقيقاً داخله.. هل فجر شيئاً كامناً.. لابد أن اللاوعى الغامض كان يحس بشئ تفجر فيما بعد شعراً.. وحباً..!

شجرة التوت

اعتاد الفتي فى موسم التوت أن يخرج مع أصدقائه إلى أي حقل توجد فيه شجرة توت.. ثم يقسمون أنفسهم.. فواحداً يصعد الشجرة ليهز غصونها المحملة بالتوت.. فيسقط على الأرض.. والآخرون يجمعون الحبات.. ثم يقتسمونها ويأكلونها..

كانوا يفعلون ذلك خلسة.. أي أنهم عليهم أولاً أن يتأكدوا من غياب صاحب الحقل.. ثم يبدأوا فى عملهم.

ومرة جاء دور الفتى أن يصعد الشجرة.. وعلى الآخرين أن ينتظروا تساقط التوت.. وبجدية وضمير.. أخذ الفتى يهز الغصون والتوت يتساقط.. وفجأة ظهر صاحب الحقل.. وحاول الإمساك بأحد الأولاد.. ولكنه لم يستطع.. وأدرك الفتى الموقف.. فتجمد فى مكانه فوق الشجرة.

تطلع الرجل إلى أعلا فوجد الفتى.. وأخذ يأمره بالهبوط.. ويسبه بأقبح السباب والشتائم.. والفتى ميت فى جلده من الخوف لا يرد ولا يتحرك.. حاول الرجل أن يصعد الشجرة ليجذب الفتى.. وهنا نطق الفتى:

– خليك يا عم وأنا نازل.

صاح الرجل: أنزل يا ابن ال..

ونزل الفتى ببطء.. وفى ذهنه أنه سيحاول الهرب.. لكن الرجل كان منتبهاً تماماً لهذه المحاولة.. فتلقفه.. وانهال عليه ضرباً وصفعاً.. والفتى يصرخ ويسترحم الرجل قائلاً:

– خليك رحيم يا عم.. أخر مرة تشوفني فيها.

لكن الرجل كان يريد أن يشبع نهمه فى تعذيب الفتى.. فلم يتركه إلا بعد أن استكفي وشبع.

وبدا على الفتى أثر الضرب والصفع.. والتقي مع أصدقائه الذين أخذوا يواسونه على ما حدث له.. لكن هيهات أن تضمد جراحه بسهولة.

ومن يومها.. أقسم الفتى ألا يأكل توتاً طوال عمره.

الصديق جرجس

كان الفتى يؤمن بالصداقة.. وكان أصدقاؤه يعتزون به لأنه شاعر حساس.. بل إن صفه الدراسي يفتخر على صفوف المدرسة الأخرى لأن به شاعراً يمثلهم فى الندوات والاحتفالات والإذاعة المدرسية.

وكان يجلس بجواره فى الصف الدراسي صديقه جرجس.. وقد ربطت بينهما علاقة طيبة امتدت إلى الأسرتين.

وفى يوم.. مرض جرجس مرضاً خطيراً.. وزاره الفتى عدة مرات فى البيت لكن حالة جرجس الصحية كانت تسرع إلى الانهيار.. حتى رحل صباح أحد الأيام.

حزن الفتى على صديقه حزناً شديداً.. وحزنت المدرسة جميعها.. وأقامت حفل تأبين حضرته أسرة جرجس.

وقام الفتى يؤبن صديقه بقصيدة حزينة استوعبت شجونه.. وصفات صديقه الطيبة.. ثم نشر القصيدة فى إحدى مجلات الحائط.

وبعد مرور أربعين يوماً على وفاة جرجس.. تلقى الفتى دعوة من الأسرة لكى يلقى قصيدته فى كنيسة بيلا.. فى ذكرى الأربعين.

ويسرع الفتى إلى الكنيسة.. ويعتلي منصة الحديث.. ويبدأ بإلقاء القصيدة أمام حشد كبير من الحاضرين وزملاء المدرسة والمدرسين.

وما إن بدأ فى إلقاء الأبيات الأولى من القصيدة حتى علا البكاء والنواح.

ولم يستطع الفتى أن يتمالك نفسه.. فانخرط هو الآخر فى بكاء شديد على صديقه جرجس.. واعتذر للجميع عن عدم إكمال قصيدته.

وأقبلت أسرة جرجس عليه يشكرونه على مشاعره الصادقة.. وتظل علاقة الفتى وأسرته بأسرة جرجس مستمرة طوال وجوده فى بلده بيلا.. وكلما حلت ذكرى رحيل زميله يتذكره بكل الصدق والإخلاص.

وهكذا كانت الصداقة . ولا تزال . عند الفتى هى الشعور الذى يملأ القلب بالحب والصدق.

هواجس صغيرة

أحس الفتى يوماً بألم أسفل بطنه وهو يلعب كرة القدم مع أصدقائه.. كانت الكرة تسمى (الكرة الشراب) حيث تصنع بعناية من الجوارب التالفة (الشرابات).. وكان الفتى يلعب حارس مرمى ماهراً.. وفى هذا اليوم اندفعت الكرة بقوة إلى أسفل بطنه فوقع على الأرض ممسكا بها.. لكنه عجز أن يستعيد قوته بسهولة.

تجمع حوله أصدقاؤه.. وحملوه إلى البيت.. وفى المساء صحبته أمه إلى الطبيب (أنطون) فأخذ يتحسسه.. ومد يده إلى خصيتيه فوجد أحداهما طبيعية والأخرى غير طبيعية.. ثم قال على الفور: الفتى يحتاج إلى عملية.

. عملية!.. همست الأم فى رعب شديد..

تبسم الطبيب: لا تخشي شيئا.. دي عملية بسيطة.. اسمها عملية فتق.

كان الفتى قبل هذا اليوم يقرأ فى بعض الكتب التى تشبع مراهقته.. وكيف أن أي خلل جنسي لدي الطفل يمكن أن يصحبه طوال عمره.. ومن ثم وجد الفتى نفسه مدفوعاً إلى سؤال الطبيب:

. العملية دي يا دكتور تأثر علىّ لما أكبر.

قال الدكتور: مش فاهم تقصد إيه.

قال الفتى: يعنى ح اخلّف لما اتجوز.

ضحك الطبيب من قلبه.. وكأنه قال نكته أو مزحة.. فاحمر وجه الفتى حياء.. ويبدو أن الطبيب لم يرحم حياءه.. فقال وهو لا يزال يقهقه:

. إنت فين والجواز فين.. يا عم أحمد.

ثم أدرك الطبيب أن من واجبه أن يرد على سؤال الفتى.. فخفف من ضحكته وقال فى شئ من الجدية:

. العملية دي يا سيدي علشان تقدر تخلف.. مبسوط بقي.

دفن الفتى أسئلته الأخرى داخله.. ودفن أيضاً كل هواجسه.. وبدا له أن إجابة الطبيب كانت تجيب عن كل مخاوفه وترد عليها.. وأقبل الفتى بلهفة على العملية.. حتى يطمئن على مستقبله.

ابن الملك

تربي الفتى على احترام الكبير.. والخوف منه.. أي أنه ببساطة كان يقسَّم الناس إلى سلطة ورعايا.

ويتذكر الفتى هذه الهواجس التى كانت تقتحم خياله.. وتؤكد له أن (الملك) هو الذى يستطيع أن يفعل كل شئ حتى المعجزات.

وكان الفتى يسابق أصدقاءه فى سرعة الجرى.. ويسبقهم أو يسبقونه.. وكان القطار هو رمز السرعة فى نظره هو وأصدقائه.. وفى نظرهم أيضاً أن ابن الملك هو الوحيد القادر على سبق القطار فى سرعته لأنه ابن الملك.. وكثيراً ما كان الجميع يتحدون بعضهم البعض فى السباق.. ويعيرّون أنفسهم بالبطء لأنهم ليسوا أولاد الملك!

أفكار كثيرة تشعَّبت فى خيال الفتى وهو يستمع إلى زواج الملك فاروق من ناريمان الجميلة.. أو يري صورة الملك وقد وقف على شاربه صقران.. بنظارته السوداء.. إنه فعلاً ملك ابن ملك.. أين هو من هذه الطبقة الراقية التى لها الخدم والحشم والقصور والسيارات الفارهة.

أما الحس السياسي.. فكان حبه للملك حباً لمصر نفسها باعتبار الملك رمز الوطنية المصرية.. وكذلك الذين يعملون إلى جوار الملك.

وكان الشيخ عبد الهادي عيد فى مسجد المعداوي يحاول أن يحلل لرواده . والفتى منهم . بعض الأخبار السياسية.. وكان معجباً بالنحاس باشا ويعتبره رمزاً أوحد للوطنية.

وأحب الفتى النحاس باشا.. وأدرك بعض أخباره ومواقفه.. وحاول الفتى أن يعبر عن حبه هذا لكن كيف.. إنه لا يستطيع ولا يعرف الرسم.. وغالباً ما ينجح فيه (بالعافية).. رغم محاولات مدرس التربية الفنية تدريس قواعد الرسم له.. لكنه استطاع أن يتعلم شيئا غريباً.. تعلم كيف يرسم وجه النحاس باشا.. وذلك بكتابة كلمة (ملح) بطريقة تظهر فيها حرف الحاء وتجويفها ثم تمد اللام إلى أعلا ويستدير بها إلى اليمين لتلتقي بعد أن يستدير بها مع ذيل حرف الحاء.. وبهذا تظهر عين النحاس الوحيدة فى (بروفيل) الوجه.. مع أنفه المشهور وذقنه المعروفة أيضاً.

ومن ثم استطاع الفتى أن يتقن وجه النحاس فقط.. أما الملك فكان سهل الرسم بطربوشه ووجهه المربع.. وجسمه الضخم العريض الكتفين.. أي أنه كان يرسمه بطريقة المربعات الهندسية.

ويبدو أن الفتى كان مغرماً بالهندسة.. يشهد على ذلك أنه كان مولعاً بالمثلث والمربع والتكافؤ.. ونظريات الهندسة.. وكان سريع الحل لأي تمرين هندسي معقد.. ويتذكر أنه كان . بعد أن يفرغ من التمارين . يستحدث تمارين أخرى أكثر تعقيداً ويختبر نفسه فى حلها.

ومن ثم نما فى داخله أن الحياة مملوءة بالتعقيدات والمشاكل وعلى الإنسان حلها.. والحياة بلا تعقيدات ولا مشاكل ليست حياة.. بل إن متعة العيش تجئ من قدرة الإنسان على حل مشاكله بنفسه.. وربما كان هذا هو السر فى ركوبه الصعب دائما.. وعدم الإقبال على السهل الميسور الذى يفعله الجميع.

قصيدة تشعل مظاهرة

اعتاد الفتى كل صباح أن يلتقي بزملائه القريبين من بيته.. ثم يبدءوا جميعاً مسيرتهم الطويلة إلى المدرسة الثانوية فى أقصى البلدة.. كان الطريق طويلاً . بمقاييس ذاك الزمان . لكن سرعان ما ينتهي لأن الصحبة طيبة.. فالأصدقاء يضحكون ويداعبون بعضهم طوال الطريق.. وقد يتحاورون حول المناهج الدراسية أو حول المدرسة والمدرسين.. وخاصة ذلك الناظر العجيب فى بنيته.. فهو ضخم الجثة.. طويل.. قال أحدهم عنه مازحاً: "إن سلسلة ظهره بالعرض".. وكان الجميع يحرصون على الوصول إلى المدرسة مبكراً لحضور طابور الصباح.. وإلا فالناظر يمسك بعصا طويلة يضرب كل تلميذ يتأخر عن موعد الحضور.. وما أشد الألم فوق الأصابع فى أيام الشتاء الباردة.

يتذكر الفتى أنه أخذ يشارك فى الحفلات والندوات بقصائده الشعرية.. وأيضاً فى الإذاعة المدرسية اليومية.. بشرط عرض القصيدة على مدرس اللغة العربية المشرف على الإذاعة.. (رقابة يعنى!)..

ولم يكن الفتى يحمل فى داخله . مثل جيله . سوى هذا الحس الوطني العميق وحبه لمصر وللثورة.. وإنجازاتها ومحمد نجيب وعبد الناصر.. وغيرهما.

ولا يزال ماثلاً فى ذهن الفتى ذلك اليوم الذى زار بلده "بيلا" عبد الناصر وحسين الشافعي وصلاح سالم.. وتساءل أيامها أين محمد نجيب.. ولا يزال يتذكرهم وهم يقفون فى سيارة مكشوفة يحيون الناس إلى أن وصلوا إلى مبني هيئة التحرير المقابل للبيت القديم فى ميدان البلدة.. وأخذوا يخطبون فى الجماهير ويطلبون منهم تأييد الثورة.

تشرّب الفتى هذا الحس الوطني داخله وفى قصائده.. إلى أن جاء يوم من أيام عام ١٩٥٨ وشهدت العراق أحداثاً دامية على أيدي عبد الكريم قاسم.. فثار وجدان الفتى وكتب قصيدة يدين بها عبد الكريم قاسم مطلعها:

يا قاسم التوحيد يا بئس الأعادي والجناة

قسّمت أحرار العراق وسرت فى أزكي دماه

وعزم على إلقائها فى الإذاعة الصباحية أمام طابور الصباح.. لكن.. خشي لو أنه عرضها على مدرس اللغة العربية أن يرفض إلقاءها.

لم يفكر الفتى فى شئ.. رأى مدرس اللغة العربية واقفاً.. لم يعره التفاتا.. دخل بسرعة إلى الميكرفون فى غرفة الإذاعة.. ألقي قصيدته الحماسية التى وقعت فى قلوب التلاميذ وفجرت فيهم الوطنية.. وتعالت هتافات التلاميذ وتحرك الجميع إلى أبواب المدرسة بنفس الحماس الوطني فى مظاهرة قوية.. انفلت الفتى من أقرب الأبواب والتحق بالمظاهرة التى كانت تعني تعطيل الدراسة لهذا اليوم ليس فقط فى المدرسة الثانوية وإنما فى كل مدارس بيلا.. وبالفعل مرت المظاهرة على كل المدارس وأخرجت التلاميذ ليشاركوا فى الهتاف ضد قاسم العراق.

ويتعمد الفتى أن يكون على رأس المظاهرة.. يحمله أصدقاؤه فوق أكتافهم ويرددون وراءه ما يهتف به.. ثم ها هو يعلو مكاناً مرتفعاً يقابل محل أخيه الأكبر.. ويخاطب بحماسة ووطنية.. ويعيد إلقاء قصيدته.. ويتحلق حول التلاميذ أهل البلدة وأصحاب المحلات فخورين بأبنائهم ومشاركين معهم فيما يفعلون.

وتطوف المظاهرة على قسم الشرطة.. وعلى أماكن أخرى رسمية.. والكل سعيد بها.. وينتهي اليوم.. ويعود كل تلميذ إلى بيته يحكي عن هذا اليوم الوطني.

ويدخل الفتى فى صباح اليوم التالي من باب المدرسة.. ويستدعيه الناظر للقائه..

. ماذا لدي الناظر يا تري ؟

لم يتباطأ الفتى.. فهو لم يرتكب جرماً . هذا ما استقر فى ذهنه.

استقبله الناظر بغضب شديد صائحاً فى وجهه:

. هل رأى المشرف على الإذاعة هذه القصيدة.

حاول الفتى أن يراوغه فقال: لم يكن واقفاً..

صاح الناظر: كان واقفاً.. وأنت لم تعرض عليه القصيدة.. هل تعلم ماذا صنعت هذه القصيدة.. لقد تحرك الأمن فى بيلا وكفر الشيخ.. وجاءوا يسألون عما حدث.. لقد وضعتني فى موقف صعب.

اعتذر الفتى للناظر عما حدث.. قبل عذره لأنه كان مثلاً فى الأخلاق لدي الناظر.. وكل ما حدث أنه حرمه من الإذاعة أسبوعاً.

لقد كان الفتى سعيداً لأن إحدى قصائده أشعلت مظاهرة..!

تخصص إنجليزي

انتقل الفتى من السنة الأولى الثانوي إلى السنة الثانية.. وفى هذه السنة يتخصص التلاميذ إما فى القسم الأدبي أو فى القسم العلمي.

ولأن ميول الفتى منذ صغره تتجه إلى الأدب.. تخصص فى القسم الأدبي وبالرغم منه وجد نفسه . أيضاً . يقبل التخصص فى التاريخ.. مثل كل زملائه.

كان الفتى يحب قراءة التاريخ.. ويستلهم منه كثيراً من المواقف والأحداث يعبر عنها فى أشعاره.

وحدث أن دخل عليهم مدرس التاريخ ليشرح لهم درسه الأول.. فلم يعجب الفتى هذا المدرس.. وقرر أن يغير تخصصه إلى أي مادة أخرى: لغة عربية أو لغة إنجليزية.

طلب الفتى مقابلة ناظر المدرسة.. وباح له برغبته فى تغيير تخصصه.

سأله الناظر: لماذا تريد أن تتخصص فى مادة أخرى غير التاريخ.

قال الفتى: لم أفهم شيئا من شرح المدرس.. وأمامي عامان علىَّ أن أتقبل هذا المدرس على مضض.

قال الناظر: أتعلم أن منطقة كفر الشيخ كلها تخصص تاريخ.. كما أن تخصص أي مادة لا يجوز بتلميذ واحد.. ولكن على الأقل يفتح هذا التخصص بخمسة تلاميذ.

قال الفتى: حسناً سيدي.. أستطيع أن أجمع لك خمسة تلاميذ.

وافق الناظر من حيث المبدأ.. ظنا منه أن الفتى سوف يفشل فى جمع خمسة تلاميذ يرغبون فى اللغة الإنجليزية.

لكن الفتى بذل جهداً خارقاً فى تجميع أربعة من زملائه وإقناعهم بهذا التخصص.

وبعد أسبوع دخل الخمسة إلى ناظر المدرسة ووقع الجميع على استمارات الرغبات بتغيير تخصصهم من التاريخ إلى اللغة الإنجليزية.

وتحمس الناظر لهذه الخطوة.. فهي تسجل للمدرسة سبقاً على غيرها من المدارس فى منطقة كفر الشيخ التعليمية.

وكان أمام الناظر صعوبة أخرى تمثل فى عدم وجود مدرس على مستوى علمي جيد لتدريس مادة التخصص.

واستطاع الناظر فى مدة قصيرة أن ينتدب مدرساً من القاهرة حاصلاً على ماجستير فى اللغة الإنجليزية ليدرس للتلاميذ مواد التخصص.

وكان الأمر عجيباً وغريباً أن يتخصص خمسة تلاميذ على مستوى محافظة كفر الشيخ فى اللغة الإنجليزية.. وأن يحضر مدرس ذو مستوى ممتاز فى اللغة حاصل على درجة الماجستير ليدرس لهؤلاء التلاميذ.

وفى الحقيقة.. لقد اجتهد التلاميذ الخمسة طوال السنتين (الثانية والثالثة) من المرحلة الثانوية.. وحصلوا على درجات عالية فى مادة التخصص.. وعادت المدرسة بعد ذلك إلى تخصص التاريخ كأي مدرسة فى كفر الشيخ.. وعاد المدرس المنتدب إلى القاهرة مرة أخرى بعد أن أدي مهمته بنجاح.

نقلة لتحقيق الحلم

كانت فرحة الأسرة الصغيرة بانتهاء الفتى من امتحان الثانوية العامة.. تفوق كل تصور.. فقد ازدحمت الأحلام فى رأس الفتى بالانتقال إلى القاهرة.. وعرض ابن عم له . زار القاهرة من قبل . بالسفر معه وتسليمه إلى خاله الذى وعده بالعمل لديه فى دار النشر بعد الانتهاء من الثانوية العامة.

وتحدد الموعد.. واستقلا القطار بعد وداع حار من أهل الفتى وأصدقائه.. ويجلس الفتى بجوار شباك القطار يتطلع إلى المجهول.. وتتصارع فى داخله مشاعر كثيرة.. وأسئلة أكثر.. لكنه فضل أن يحبسها جميعاً داخله حتى يصل إلى هذه المدينة التى تجسد حلمه المتوقع.. ساعات طويلة مرت عليه داخل أكثر من قطار.. يتبادل مع ابن عمه بعض الحديث.. لكن ذهنه مشغول بأمور أخرى.

وأخيراً وصل القطار إلى القاهرة حيث توقف فى المحطة.. اندهش الفتى أمام ما رآه فى هذه المحطة المعروشة بالزجاج.. والتى يقف فيها قطارات كثيرة.. والتى يرن فيها الصوت حينما يعلن عن قيام قطار أو وصول قطار.. ما هذا كله.. إذا كانت المحطة بهذه العظمة وهذه الدهشة فماذا تكون القاهرة.

لحسن الحظ كان مكان خال الفتى قريباً من المحطة نسبياً.. أي أنهما سوف يصلانه مشيا على الأقدام.. وجدها الفتى فرصة لمصافحة وجه القاهرة الجديد.. إنه وجه غريب

عجيب حقا.. أين بيلا من هذه المدينة.. أبواق السيارات.. شوارع مرصوفة.. ناس كثيرون يعبرون الشوارع.. باعة على الأرصفة.. محلات.. فتيات.. ماذا.. نعم فتيات يرتدين ملابس ضيقة ويمشين بتمايل ودلال.. ألا يوجد حياء فيهن.. نحىّ ذلك الخاطر المغلق عن ذهنه.. وترك عينيه تتأملان كل شئ.

وصلا إلى المكان.. إنه مبني كبير فى سوق التوفيقية له سلم كثير الدراجات مرتفع.. كأنه قصر من القصور التى كان يتخيلها حينما كان يستمع إلى ألف ليلة فى الراديو.. دخلا المبني الكبير سألا عن خال الفتى لم يكن موجودا.. لكن السكرتيرة حينما عرفت شخصيتهما.. أدخلتهما إلى غرفة الخال..

دخل الفتى وابن عمه غرفة الخال.. ما هذه الأبهة.. والنظافة والأثاث المريح.. والاتساع الغريب.. كأنه حلم.. هو بالفعل حلم لدي الفتى.. فإذا تكرر رؤيته مرة ومرة فربما يقتنع أنه أصبح واقعاً.. مازالت الدهشة تعلو وجهه.. فجأة: سأله ابن عمه:

– ما رأيك؟

رد عليه وقد جعله يفيق من دهشته: أنا كنت بحلم..

ضحك ابن عمه.. وقال:

– حلم إيه يا عبيط.. إحنا فى القاهرة.. عارف يعني إيه القاهرة.. حاول تنسي بقي السذاجة اللي كنت فيها فى البلد.. وابتدي بداية جديدة هنا.

قطع هذا الحوار دخول شاب يلبس قميصاً وبنطلوناً مثلهما.. اقترب منهما.. قام الفتى من على مقعده ليسلم عليه.. ارتبك الشاب وقال:

– تفضل يا بيه.. تفضل.. تحب تشرب إيه ؟

لاحقه ابن عمه وأناب عنه فى الرد:

– اثنين شاي لو سمحت.

قال الشاب: أمرك يا بيه.. وخرج.

ابتسم ابن عمه معاتباً:

– كويس اللي أنت عملته ده.. دا الساعي.. الراجل داخل يسألك عاوز تشرب إيه.. تقوم له وتسلم عليه.. ده كلام.

علت وجه الفتى حمرة الخجل وهو يرد:

– اعذرني يا ابن عمى.. أول مرة فى حياتى يحصل لي ده.

بعد قليل دخلت السكرتيرة.. وقالت:

– الأستاذ اتصل من بره وجاى حالاً.

رد عليها ابن عمه: شكراً يا ستي.

لم يكن لمح الفتى ملامح السكرتيرة حينما دخلا عليها فى البداية.. لكن الفتى هنا كانت أمامه فرصة قصيرة ليراها كاملة.

رآها الفتى أجمل الجميلات.. الشعر الأصفر.. والوجه الأبيض المشوب بحمرة.. والجسم النحيل الملفوف.. والرشاقة فى الحركة.

– يعنى إيه سكرتيرة ؟

سأل الفتى ابن عمه.. لكن يبدو أن ابن عمه قد أدرك ما خفي من المشاعر فرد عليه.

– إيه رأيك فيها.. حلوة.

دق قلب الفتى.. وعلاه الحياء.. ولم يرد.

قال ابن عمه: طبعاً حلوة.. مش زي بنات بلدنا.

قطع الحوار دخول الساعي بالشاي.. وضعه بأدب شديد.. ثم سألهما: أي خدمة ؟

قال ابن عمه: شكراً

بعد وقت قليل دخل الخال فى هيئته الراقية الشامخة.. رحب بهما ترحيباً شديداً.. سأله الخال عن أمه وإخوته.. بدأ حديثاً ودوداً.. فهم منه الفتى أن حياة جديدة توشك أن تبدأ..

أية حياة تلك يا تري ؟

أية نقلة سوف يقوم بها الفتى.. ما الذى ينتظره فى الغد ؟

كان خاله قد أعد كل شئ للفتى عن هذه الحياة الجديدة..

الشعر.. هذا السلطان

أما هوايات الفتى فبالرغم أنها هوايات محدودة.. فقد كان يأخذها مأخذ الجد.. فهو مشغوف بالقراءة فى كتب الشعر القديم والشعر الصوفي وألف ليلة وليلة.. وساعدته حصة المكتبة وحصة الخطابة على قراءة الكتب العصرية لطه حسين والعقاد والمنفلوطي وغيرهم.. يتذكر جيداً أنه كان سباقاً فى حصة المكتبة إلى قراءة واستيعاب الكتاب ثم يقف فى حصة الخطابة متمثلاً شخصية المدرس الذى يجلس فى مكانه.. ويواجه زملاءه ومعهم المدرس ويشرح لهم ما جاء فى الكتاب.. ويجيب على أسئلتهم.. وكان أول كتاب يشرحه الفتى لزملائه (الأيام) لطه حسن.. ولعل تكرار هذه المواجهة هى التى جعلته فيما بعد نجماً فى الندوات واللقاءات المختلفة..

أما علاقته بالشعر.. فقد بدأت مبكرة.. وعلى وجه التحديد فى أحداث بور سعيد عام ١٩٥٦ ولم يكن بلغ الرابعة عشرة من عمره بعد.

فقد شغف الفتى بالأغاني الوطنية التى كانت تذاع آنذاك وتحمس الجماهير وتدعوهم إلى النضال.. وإلى التبرع إلى المجهود الحربي بعد رفض الدول الكبرى مساعدة مصر على مواجهة العدوان الثلاثي.

ويتذكر الفتى أنه أعجب بأغنية عبد الوهاب {سلح جيش أوطانك.. واتبرع لسلاحه}. ومن شدة أعجابه بهذه الأغنية كتب على غرارها أولي محاولاته الشعرية بالعامية.. ووجدها

فرصة لعرضها على صديقه الشيخ حسن محرم الحويني طالب الأزهر آنذاك والذى كان يلتقي به كل يوم فى المسجد.

انطلق الفتى إلى صديقه وألقي عليه ما كتبه وصديقه صامت لا يعلق ولا يوجد فوق وجهه أي انفعال بما يسمع.. وكاد الفتى يمزق الورقة التى كتب فيها قصيدته لكن الشيخ لاحقه فى هدوء: هذا جميل لكن الأجمل أن تكتب هذه المعاني بالفصحى وأنا أعرف أنك ممتاز فى اللغة العربية.. ضحك الفتى وقال فى استحياء:

– يعنى ح ابقي شاعر يا أخى.

رد صديقه فى تأكيد:

– ولم لا.. أنا شايف إن عندك حس موسيقي ولغة.. وهى دي الموهبة.. ويا سيدي مش ح نخسر حاجة نحاول..!

وعد الفتى صديقه بالمحاولة.. وبالفعل بدأ الفتى دربه الطويل مع الشعر من هذه الشرارة التى فجرها فيه صديقه.. وظل معه حتى أتقن أول قصيدة فصحى.

ولا ينسي الفتى طوال حياته موقف هذا الصديق الذى هو الآن أحد نجوم التدريس فى جامعة الأزهر.

ويتذكر الفتى أنه كان يكتب موضوع التعبير ثم ينهيه بمقطوعة شعرية من تأليفه بعد أن يكتب (قال الشاعر).

ويظل على هذه العادة فى كل موضوعات التعبير.. حتى جاء يوم وسأله مدرس اللغة العربية.. لماذا لا تكتب اسم الشاعر الذى قال هذه الأبيات.

وهنا طأطأ الفتى رأسه خجلاً.. لكن المدرس أعاد السؤال بأسلوب مستفز:

– ألا تعرف الشاعر الذى نقلت عنه هذه الأبيات.. كيف ؟

وهنا.. فاجأ الفتى المدرس بقوله:

– إنه أنا.. أنا الشاعر صاحب الأبيات.

وفوجئ المدرس.. لكنه تحول فجأة من المدرس المستفز إلى المدرس الموجه.. المحب للفتى.. والمتابع لكل ما يكتب.

ويظل الشعر زاد الفتى طوال عمره.. وكعادته فى أخذ كل شئ فى حياته مأخذ الجدية.. كان يشترك فى الندوات والأمسيات فى بداية شق طريقه فى ساحة الشعر ويستفيد من أساتذة والشعراء الذين سبقوه.. وبدأ ينشر أشعاره بالفعل منذ عام ١٩٦٤ بعد رحيله إلى القاهرة وهذه البداية أيضاً لم تكن سهلة وإنما هو لإدراكه أن الإعلام الأدبي قد يزيف ولا يصدق.. أرسل بالقصيدة التى رآها تصلح لتقديمه للقارئ إلى إحدى المجلات البيروتية بدون واسطة فنشرتها المجلة.. ثم تقدم بها إلى وسائل النشر بالقاهرة واثقاً فى خطوه وإبداعه.

وهذه مرحلة أخرى حافلة بالحكايات والشخصيات سوف نخصص لها الفصل القادم.

الفصل الثانى

شاعر تحت السلاح

ربما يكون الحديث عن فترة التجنيد شائكا أو محظورا .. ولهذا فسوف أحاول أن أدور حوله دون أن أخوض فى أمور يختلف عليها الكثيرون.

كان الفتى – كما نعلم – أكبر إخوته .. ومن ثم كان مسئولا عن أسرة مكونة من الأم وثلاثة إخوة. ومن موقع هذه المسئولية ظل يتقدم إلى القوات المسلحة بتأجيل تجنيده حتى يتخرج أخوه التالى بعده.

وجاء اليوم الذى يسلم نفسه فيه طواعية إلى مركز تجنيد الإسكندرية (٢٧ نوفمبر ١٩٦٨) .

وفى هذا الشهر استقبلت مراكز التجنيد دفعات كثيرة من المؤهلات العليا.. التى أدت دورًا كبيرًا فى حرب اكتوبر فيما بعد .. وتبدلت بدخول هذه الأعداد البيئة الاجتماعية والثقافية للقوات المسلحة.

يترك الفتى عمله ومسئوليته – مقهورًا – إلى واجب الجندية..

لم تكن تلك النقلة سهلة يسيرة على نفسيته.. فقد كان فى عمله شخصا مرموقا يقود مجموعة من العاملين.. صاحب قرار – برغم صغر سنه – لكنه الآن فى عالم مختلف تماما.. عالم الأمر والطاعة بلا مناقشة ولا جدال..

وكان شاعرًا له أعمال منشورة .. وشارك فى الأمسيات والمهرجانات الشعرية .. وأحس بقيمته الإبداعية بين أقرانه .. وها هو الآن لو ترك قريحته للتعبير عما يحسه .. لغرق

فى موج التشاؤم والحزن والأسى .. وربما فقد – من فرط إحساسه – تلك الطاقة الإبداعية التى وهبها الله إياه..

وكان رب أسرة – يعولها – وينفق عليها .. ويرعاها .. فلمن يترك هذه الأسرة بعد أن يرحل عنها.. ويتقاضى نصف مرتبه..

وها هو أيضا تتقلص مساحات طموحه.. حيث يحاصر فى أسوار لا يدرى متى ينفك منها.. فمنذ نكسة ١٩٦٧ والقيادة السياسية تطور وتسلح القوات المسلحة للأخذ بالثأر .. وهذه مهمة غير محددة بمواقيت .. ولا أحد يعرف متى يأتى هذا اليوم.

مخاوف وهواجس كثيرة طوقت الفتى وحاصرته.. لا يملك لها مخرجا ولا خلاصا..

ويعبر الفتى عن ذلك حين يصف أول يوم وأول ليلة قضاها بمقولة:

(يوم كامل منذ الصباح فى لا شئ غير الانتظار الممل والصقيع والأوامر : ارتد اللبس العسكرى الكامل – شيل المهمات – خطوة تنظيم ..وأخيرا .. موعد .. كان الموعد الأول السابعة صباح اليوم .. وكان الموعد الذى يليه هو الحادية عشرة مساء نفس اليوم على محطة القطار بالإسكندرية.. ولماذا الحادية عشرة أغلب الظن لكى يصل القطار محطة القاهرة صباح اليوم التالى..

هو إذن يسمونه قطار الليل .. أو القطار الذى ليس له موعد يكاد يقف عند كل شجرة فى الطريق .. نوافذه محطمة يهب منها الصقيع.. كنت محظوظا حيث نلت مقعدا خشبيا –طبعا– بجوار شباك القطار لأحصل على قسط من النوم بإسناد رأسى إلى جدار العربة.. رأسى فقط الذى ينام .. أما بقية جسمى فبعضه ملتصق بالمقعد الخشبى.. متجمد حبيس الزى الميرى.. الظلام يسود العربة إلا من بصيص ضوء آت من مصباح صغير بعيد فى سقف العربة.

وها هو القطار يزحف بالفتى وأقرانه زحف السلحفاة .. وتشرق الشمس .. فتشرق نفسه قليلا .. ويفتح عينيه على الطبيعة الخضراء فيشعر ببعض التفاؤل.. ويسرح فى ذكريات شجية..

ويصل القطار فى الساعة السابعة صباحا محطة القاهرة .. ويستقل الجميع عربات الجيش المنتظرة إلى مركز تجنيد القاهرة فى حلمية الزيتون..

تعجب الفتى لهذه الألوف من الشباب الجامعى وهم يتجمعون فى هذا المركز.. وبرغم كل ما يشعر به من آلام وإرهاق أحس الفتى أن المهمة وطنية وواجبة..

فى منتصف اليوم وبعد أن استكملت أعداد المجندين من كل مكان.. فوجئ المجندون بالفريق عبد المنعم رياض رئيس الأركان ..

بدأ الرجل حديثه بمودة بالغة .. وأنه مقدر جدا وجود هذه العقول فى القوات المسلحة .. ولابد أنها سوف تؤثر ايجابيا فى (التركيبة) الاجتماعية والثقافية داخل الجيش.

كان حديثا مغايرًا تمامًا لما توقعه الفتى.. فقد استطاع هذا الرجل أن يجذب إليه قلوب الآلاف المجندين .. ويقنعهم بمهمتهم فى الأخذ بالثأر من العدو .. وأن ذلك يتطلب الصبر والإرادة والتدريب والتفكير السليم.

وبدأ توزيع المجندين على الأسلحة المختلفة..

كان نظام التوزيع يقضى باستقبال مواليد كل ثلاثة أشهر على حدة – بمعنى كل من ولد من يناير إلى مارس من أى عام يدخل أولا .. يليه من ولد من مارس إلى يونيه وهكذا – .

ولأن الفتى كان من مواليد ديسمبر .. فقد كان فى مجموعة من دخل إلى اللجنة فى آخر النهار..

دخل الفتى على لجنة التوزيع.. وكانت مكونة من أربعة ضباط كبار .. سأله أحدهم عن اسمه ومؤهله وسنه.. ثم سأله : أى سلاح تريد؟.

اعتقد الفتى أنه يستطيع أن يختار .. لكنه ليس له خبرة بأى سلاح فى الجيش .. لكنه يسمع أن المركبات سلاح جميل .. وأن الصاعقة مثلا سلاح صعب .. فأجاب: المركبات يا أفندم.. نظر الضابط فى أوراق أمامه وقال: لا يوجد مكان يا أبنى فى المركبات.. ولا حتى فى المشاة.. على كل سنلحقك بسلاح سيعجبك .. ستكون فى سلاح الوقود.. وستكون ضابط احتياط..

طبعا يجهل الفتى تماما ما قاله الضابط الكبير .. فلم يعلق .. وانصرف .. ثم أفاق أنه سوف يكون ضابطا وليس جنديا.. فغشيته سحابة من الأسى والحزن .. فقد قيل إن الجندي يمكث عاما واحدا وأن الضابط ثلاثة أعوام.

لم يفق الفتى إلا على اسمه ينادى عليه ليستقل عربة ترحيل إلى كلية الضباط الاحتياط..

استسلم الفتى وحمل المخلاة إلى العربة مثل زملائه.. وتحركت العربة إلى ألماظة حيث الكلية..

هبط الفتى من العربة وتطلع حوله.. وعرف أنه ضمن دفعة ٢٤ احتياط.. وأن هذا المكان المسور بالأسلاك الشائكة سوف يكون مكان الكلية التى سوف تبنى جدرانها فيما بعد.. وإلى أن يتم ذلك سوف تكون الإقامة فى خيام..

كيف سيتحمل الفتى كل هذا .. إن الصقيع يلف المكان.. الماء الذى يستحم به الجميع ويستخدمونه بارد جدا.. الأرض طينية ، المواعيد كالسيف .. الممنوعات أكثر من المسموحات..

يقول الفتى فى مذكراته عن تلك الأيام:

(كل شئ إذن الزجاج .. ممنوع لمسه حتى لا يتسخ أو ينكسر .. كل الأمور هنا كالملبن ..إذا أردت أن تمشى بقدميك فلا محالة أن تغرز بحذائك.. وإذا أردت أن تشمخ برأسك .. فعليك أن تغوص فيه إلى الشعر أو الرأس الحليق.. كل الأشياء هنا لا تملكها ولا تستطيع أن تملكها.. كل شئ هنا تحول إلى اللون الأصفر .. لون بلا هوية أحيانا.. وأحيانا أخرى لون القسوة والريبة وعدم الثقة.. وصنوف العقاب كثيرة متنوعة بل أسبابها قد تكون فى نظرنا بلا منطق.. ولا تستحق العقاب.).

بالطبع يمكننا أن نعذر الفتى فى هذا التصور .. فالنقلة لم تكن يسيرة على شعوره وإحساسه بالحياة..

لم يكن أمامه إلا التسليم بهذا التحول والتكيف على هذا العالم الجديد..

لم يستطع ذلك لمدة ثلاثة أشهر.. كتب شعرًا مملوءا بالحزن واليأس والأسى.. وكتب مذكرات تقطر دمعا ودما.. من ذلك مثلا:

(غدا أول عام جديد ١٩٦٩ تنبهت لذلك لأن الكلية أعطت لإخواننا المسيحيين إجازة لمدة ٢٤ ساعة فقط احتفالا برأس السنة الميلادية .. الحالة التى أعيشها لا تتيح لى معرفة الأيام أو تحديدها والأيام والليالي كلها متماثلة تنطلق من ماسورة بندقية واحدة بانتظام ودقة وتماثل وتشابه تام .

وعلى هدف بعيد واحد .. هدف غامض خاف لا نراه لأن قوة النيران المشتعلة نتيجة الضرب قد تَّوهت هذا الهدف تماما فصعب علينا تحديده أو رؤيته.. المهم أن غدا عام جديد.. لقد تعودت فى الحياة المدنية أن أخلو إلى نفسي فى نهاية كل عام ساعة من الزمان أجمع يومياتي التى سجلتها وأحللها وقد أحاسب نفسى حسابا عسيرا على أى ذنب أو إساءة إلى الغير.. اليوم لا أستطيع ذلك فالعالم من حولى مغلق تماما – على اتساعه ورحابته – إنه امتداد للأفق – هذا حق – ولكنه أفق تطلع منه شمس الضجر والأسى .

والوقت من حولى سلك شائك .. إذا دققت فيه ولمسته بيدى أدماني .. وإذا ابتعدت عنه ألح علىَّ وتوعدنى .. فكيف إذن أحصل على وقتى .. ومن تراه يمنحنى أداة تكسر أشواك هذا السلك القاتل).

ربما لو لم يكن الفتى شاعرا حساسا .. لاستطاع أن يستوعب هذه النقلة بلا ضجَّر وأسى.. لهذا استغرق وقتا طويلا حتى يصل إلى مرحلة الاستيعاب والتكيف..

جلس الفتى يوما إلى نفسه.. وأخذ يتذكر كيف كان وكيف صار.. وطرح على نفسه سؤالا .. بل أسئلة.

هل تعرف متى ينتهى هذا الأمر

وكانت الإجابة : لا ..

هل يعيدك هذا الشعور المضنى من اليأس والضجر؟

وكانت الإجابة : لا بالطبع..

هل تملك حاليا تغيير الظروف من حولك؟

وكانت الإجابة : لا بالطبع .

هل تشعر بالسعادة وأنت بعيد عن شعرك وطاقتك الإبداعية؟

وهنا .. أفاق الفتى .. وكانت الإجابة : إلا هذا

إذن لابد أن يتكيف الفتى على استيعاب هذا الواقع الصعب.. بأى وسيلة وبأى طريقة كانت..

استراح – داخليا – لهذا التفكير المنطقى وقال لنفسه: تخيل نفسك فى معسكر تدريب لكنه بلا نهاية.. أو بلا وقت محدد..

وبالفعل كانت إرادة الفتى أسبق من عاطفته وإحساسه فى تقبل الواقع الذى يعيشه.

مكث الفتى نحو ستة أشهر فى كلية الضباط الاحتياط فى هذه الظروف الصعبة والخيام الباردة.. والماء والصقيع.

ثم ها هو ينضم إلى فرقة تدريب لمدة أربعة أشهر فى الكلية الحربية .

نقلة نوعية أخرى مختلفة تماما..

فالكلية الحربية عريقة بها مبان وملاعب وساحات تدريب وحوض سباحة..

الأمر مختلف تماما..

أدرك الفتى أن الحياة فى الحربية – برغم دقة انضباطها – أفضل كثيرا من الاحتياط والواقع السابق..

كانت الفترة التى قضاها فى الحربية وتدريباتها من أمتع الفترات ويتذكر الفتى أن اللواء على زيور – المعلق الرياضى الشهير – كان قائد لواء القلب أى المسئول عن طابور الصباح والتفتيش على الملبس وحلاقة الذقن ، وقص الشعر .. والمظهر العام .. وكان الرجل يتميز بخفة ظل نادرة.

ذات صباح مر الرجل على الطابور فوجد زميلا لم يحلق ذقنه فأخرجه إلى الأمام وصاح بأعلى صوته ليسمعه الجميع:

شوف أنا باقولك صباح الخير.. وأنت بتقولى صباح الزفت .. ده ينفع.؟

ووقع عليه عقابا..

جذب الرجل الفتى بهذا التعليق الأدبى الجميل – على حدته –

وتنتهى فترة الحربية ويوزع الفتى على سلاح الوقود .. وكان حظه أن يكون ضابطا فى مستودع الوقود الميدانى ١٠٣ ومكانه فى (عزبة النخل) شرق القاهرة.

استراح الفتى لهذا الحظ الذى يجعله قريبا من بيته فى مصر الجديدة وقد كان هذا المستودع ميدانيا.. أى أنه سيظل فى تدريب مستمر واستعداد جيد حتى تقوم الحرب ويكون له دور فى تموين العربات والمعدات الخاصة بالمنطقة التى يوجد بها فى جبهة القتال..

استقر الفتى نفسيا بعد عام مر عليه وأجهده نفسيا وعقليا فحمد الله على ذلك .. وكان قائد الوحدة رجلا يتمتع بخلق كريم وانعكس ذلك على ضباط وجنود المستودع.

أدرك الفتى أن السنوات تمر ولا يستطيع أن يتنبأ متى تقوم الحرب ويأخذ بالثأر.

طلب منه قائد المستودع – بعد أن عرف أنه شاعر – أن يتولى الشئون المعنوية للجنود .. فكان يجلس إليهم فى لقاءات ثقافية ودينية كثيرة..

عرف الفتى أن من بين الجنود عددا حاصلا على الثانوية العامة أو الثانوية التجارية.. اجتمع بهم وحرضهم على استكمال التعليم الجامعى .. واستطاع أن يحصل على موافقة قائد الوحدة ونظم لهؤلاء الطلبة (وكانوا ثمانية) الأوقات التى يحضرون فيها محاضرات فى الجامعة.. وعلى مدى أربع سنوات حصل الجميع على مؤهلاتهم ما بين بكالوريوس تجارة وليسانس حقوق.. وكان سعيدا بهذه النتيجة التى ربطت بينه وبين هؤلاء الطلاب بأواصر المودة الجميلة.

وأخذ الفتى يكتشف فى الجنود مواهبهم .. فمنهم من يكتب الشعر ومنهم من لديه موهبة التمثيل أو الغناء.. أو العزف على آلة موسيقية فاقترح أن يقام حفل ترفيهى سنوى يدعى إليه قائد سلاح الوقود وضباط من خارج الوحدة .. وبالفعل أشرف الفتى على هذا الحفل أكثر من مرة.. وكان تأثيره معنويا قويا فى نفوس الحاضرين.

يتذكر الفتى هذا اليوم الذى رحل فيه الزعيم جمال عبد الناصر (٢٨ سبتمبر ١٩٧٠).

إنه يذكر تماما يوم ظهر عبد الناصر على الشاشة البيضاء يعلن تنحيه عن السلطة.. فقام الشعب عن بكرة أبيه يطالبه بالاستمرار .. وغنت أم كلثوم (ابقّ) بصوتها الساحر.. أما هو فقد كتب قصيدة بدأها هكذا:

لا يا جمال.. وألف لا

لا يا جمال .. نقولها

ونعيدها.. ونريدها

لا .. ألف لا

باسم الحياة

باسم البسالة والكرامة فى الجباه

باسم الشعوب الثائرة

فى القدس .. فى بغداد .. فى بيروت

فى وهران.. فى صنعاء.. فى الخرطوم

أو فى القاهرة

باسم الشواطئ والبحار الهادرة

باسم الحضارة والأصالة

والعيون الساهرة

باسم المصانع والحقول

باسم الإباء الحر باسم المستحيل

لا يا جمال..

وهى قصيدة طويلة صادقة..

وكان الفتى قد حصل فى العاشر من سبتمبر عام ١٩٧٠ على شهر إجازة زواج .. حتى جاء يوم رحيل عبد الناصر .. فقطع إجازته وعاد إلى وحدته مرتديا زيه العسكرى ..

ويقع عليه الاختيار ليكون أحد الضباط الذين يقفون على كوبرى قصر النيل فى استقبال الملوك والرؤساء والوفود التى أقبلت من كل مكان فى العالم لحضور جنازة الزعيم .

ويشهد الفتى وقائع الجنازة ويشارك فيها ويكتب (أغنية وداع)

لا تسألوا : نلقاه أين

كنا على موعده .. ألفين

كنا نعد قلبنا.. والروح .. فى لقائه–

والعين

ياما التقينا تشرق فى شفاهنا

ابتسامة اللقاء

نمد أيدينا لومضة تلوح

فى الجباه .. فى السهول

فى القفار

فى الخضرة الممتدة الأبعاد

فى الليل فى النهار..

وفى عزائم الرجال..

لكننا أمس انتظرناه..

ولم يعد إلينا

أمس انثنى بلا وداع

وأخمدت على شفاهنا تحية الوداع

وشمس الاستواء فوقنا

تسد أفق الغيب بالرماد

وتوقف الوعد الذى وعد

إلى لقاء

إلى لقاء آخر حبيبنا البطل

إلى لقاء آخر حبيبنا البطل

هذا مقطع من القصيدة..

لم يترك له القدر لكى يأخذ بالثأر العاجل.. لكنه تأخر ثلاث سنوات أخرى على أيدى السادات الذى استطاع بحق أن يقود الحرب ويحرز النصر.

فى هذه الفترة كان صديق الفتى .. محمد السيد عيد يقوم بمهمة الشئون المعنوية على مستوى سلاح الوقود فازدادت رابطة المحبة بينهما وتعاونا فى بث الوعى بين أفراد الوحدة.

ويجئ شهر سبتمبر ١٩٧٣ويختار الفتى للحصول على فرقة الحرب النفسية فى مدرسة الشئون المعنوية بألماظة.. ويتلقى دراسة جادة عن إسرائيل والمشكلة الفلسطينية يقوم بتدريسها النقيب محمد على رأفت..

اكتشف الفتى خلال ثلاثة أسابيع كم نحن نجهل إسرائيل وما يتعلق بها وبقى ثلاثة أسابيع أخرى حتى تنتهى الدراسة.

وجاء يوم الأحد ٣٠سبتمبر ١٩٧٣ وفوجئ المشاركون فى الفرقة بخطابات شخصية سرية تدعوهم إلى العودة لوحداتهم فورا للاشتراك فى مشروع تعبوى استراتيجيا هكذا.

توقع الفتى أنه مشروع كأى مشروع سابق.. شَدَّة مثل أى شَدَّة سابقة .. لا شئ جديد على خريطة الوضع السياسى أو العسكرى يدل على جديد..

لقد اجتهد السياسيون فى الترويح لعام الحسم وعام الضباب وغيرهما من الأسماء التى ثارت دونها النفوس.. وكثرة التساؤلات:

متى تقوم الحرب.؟

وتصور الجميع أن هناك فترة استرخاء فى القوات المسلحة بل هناك أوامر بالعناية بالمظهر مثل ارتداء حذاء طويل له رباط ٣ متر يربط بطريقة خاصة – تطويل أرجل البنطلون بحيث يدخل فى الحزاء الطويل ٨ سم و٧ سم خارج الحذاء – تطويل السترة ٣٠ سم :١٥ سم فى القايش و١٥سم خارجه – تقصير شعر الرأس ٣ سم – منع

ارتداء الأفارول فى الشوارع – جزاءات رادعة لكل مخالفة – تربية الدواجن والحيوانات فى الوحدات – القوات على شط القناة يمكنها الاستحمام وقضاء وقت فى مياه القناة.
أوامر تدل على أن الأمور عادية.. فليكن المشروع المتوقع مثل أى مشروع سابق..
عاد الفتى فى اليوم نفسه إلى المستودع ..وكان بكامل طاقته من الضباط والجنود
لم يكن الأمر طبيعيا – لكن لا احد يعرف شيئا محددا
وتبدأ ساعة الصفر الساعة الثانية وخمس دقائق ظهر السبت السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .. ويحكى الفتى هذه الفترة بقوله:
(أخذنا نعد أنفسنا إعدادا جيدا.. كان المستودع يتكون من ثلاثة أقسام لكل قسم قائد وضابطان ونحو ٣٠ جنديا مدربا .
فى الليل جمع القائد مقدم عادل سالم ضباط المستودع جميعا لاجتماع طارئ وضعنى على رأس القسم الثالث.. ووضع ضابطين عاملين على رأس القسم الأول والقسم الثانى..
ثم طلب القائد من القسم الأول أن يبدأ فى الصباح الباكر التحرك إلى الإسماعيلية .. لكن ضابط القسم الأول – وهو ضابط عامل – تماطل وتحجج .. وطلب إرجاءه بعض الوقت فصحت: أنا يا أفندم مستعد للتحرك غدا.
اندهش القائد فالمفترض أن الضباط العاملين هم الأولى بالمبادرة
قال القائد: لا .. سيخرج القسم الثانى..
فصحت مرة أخرى: أريد أن أخرج أنا لو سمحت سيادتك..
وأمام إصرارى .. وافق القائد على خروجى مع القسم الثالث.
واستأذنت فى ساعتين أودع فيهما أهلى وأحبائى.. وأعود لإعداد نفسى للخروج إلى الإسماعيلية فى الساعة الخامسة صباحا.
وبالفعل استطعنا فى وقت قصير .. وتحت قذائف العدو أن نضع (صهاريج) الوقود الضخمة شرق وغرب القناة ونضع فوقها أغطية بلون البيئة المحيطة بما يعرف بالتمويه – ثم نمد مواسير الوقود بين الشاطئين.. لينقل الوقود إلى الضفة الشرقية ..

وكلما استهدف العدو مواسير الوقود فوق مياه القناة نهبط بسرعة وحرفية لإصلاحها حتى يتم توفير الوقود بلا توقف .

ظللنا هكذا طيلة أيام القتال.. بل ظللنا فى أماكننا بعد أن انتهى..)

ظل الفتى يتنقل بين الإسماعيلية وبورسعيد والسويس والتل الكبير فى مهمات خاصة يكلف بها من القائد عادل حسنى.. فقد كان يثق به.. ويقدره.. ويسعد حينما يرى قصيدة له منشورة هنا أو هناك.. فقد كان هذا الرجل مثقفا محبا للقراءة والمعرفة وهو خريج كلية العلوم.. أى أن تفكيره علمى لكنه كان يحب المعرفة..

توثقت علاقة الفتى بزملائه بعضهم ضباط احتياط وبعضهم الآخر ضباط عاملون.. وربما كانت هذه العلاقات هى التى هونت عليه فترة وجوده من أكتوبر ١٩٧٣ حتى يونيه ١٩٧٤ تاريخ خروجه من القوات المسلحة برتبة نقيب .

ويتذكر الفتى أيضا أن القيادة العامة للقوات المسلحة قد أعلنت أنه يمكن للضابط الاحتياط أن يستمر فى الجيش وفى هذه الحالة يتساوى مع قرينة فى المرتب والامتيازات .

ولا شك أن ذلك قد أرضى كثيرا من الضباط الاحتياط ففضلوا الاستمرار بدلا من الخروج إلى الحياة المدنية..

كان الأمر اختياريا .. ومغريا لهؤلاء الذين ليس لهم عمل مدنى أو الذين تستهويهم حياة الجندية .

لم يحتج إلى كثير من التفكير .. وحسبه ست سنوات قضاها فى الجندية وقام بواجبه الوطنى على أكمل وجه والحمد لله، ففضل الخروج إلى المدنية ليمارس عمله.. وأكمل مشروعه الإبداعى .. وكان ذلك فى يونيه ١٩٧٤.

صحيح كان الفتى يستدعى بين الحين والآخر.. فيرتدى الزى العسكري ويتجه إلى وحدته ليقضى بها بعض الأيام.. والذكريات التى لا تنسى.

الفصل الثالث

فى قلب الحركة الثقافية

أخذ الفتى على نفسه عهدا وميثاقا ألا يكون تابعًا لأحد .. وألا يحسب على أى مجموعة أو (شلة) ثقافية ولا حتى مقهى ثقافى.

كان على يقين أن ما يصنع مجد الشاعر شعره وليست علاقاته.. وأنه مهما اشتهر (إعلاميا) .. فلن تدوم هذه الشهرة إلا إذا التصق بها الإبداع المتميز .. فالشهرة زائلة.. والإبداع هو الباقي..

يدرك الفتى مسئولية الكلمة.. وقوتها .. وقوة تأثيرها ويدرك أيضا أن المناصب إلى زوال.

ويدرك كذلك أنه ابن بيئته الثقافية.. لهذا كان رفضه قاطعا لأى إغراء خارج وطنه.. فهو على يقين أن انتماءه لبيئته الثقافية لا يعوضه مال ولا منصب.. وأن بقاءه فى وطنه يجعله واعيا إلى مكانته الثقافية والإبداعية.. وحضوره الدائم .. أما إذا غاب عن الوطن سنوات فربما ينفصل نفسيا وإبداعيا عنه.. وعن المتلقى الذى ينتظر منه الجديد دائما.

كان هذا هو تفكيره ويقينه.. وربما كان على صواب .. وربما كان على خطأ .. لكنه ظل متمسكا ببقائه رغم كل الإغراءات ..

ويجمع الفتى بين العمل الإداري والعمل العام الثقافى..

أما العمل الإدارى.. فقد عمل فى دار القلم منذ عام ١٩٥٩ إلى عام ١٩٦٨ حيث التحق بالجيش مجندا وخرج بعد ست سنوات برتبة نقيب ليجد نفسه من العاملين بالهيئة العامة للكتاب.. فى قسم التسويق.

كان على رأس الهيئة الدكتور محمود الشنيطى رحمه الله وكان بينه وبين خاله محمد المعلم شقاق وخلافات كثيرة.. فلما علم صلة القربى.. أخذ يعامله معاملة سيئة وهو لا ذنب له أن يكون المعلم خالة.

أحس الفتى بالاضطهاد وسوء المعاملة.. فتقدم للحصول على تفرغ لكتابة مسرحية شعرية عن أبى فراس الحمدانى وحصل بالفعل على التفرغ. وكانت فترة للتفكير.

لكنه لم يشعر أنه يستطيع أن يستمر هكذا متفرغا لكتابة عمل شعرى.. وسرعان ما أخذ قرارا بقطع التفرغ بعد ثلاثة أشهر وعاد إلى عمله..

ويقر الفتى أنه لم يكتب هذا العمل إلى اليوم ربما لأنه ارتبط بهذه الفترة من عمره التى ضاعت فى التفرغ.

ويحاول الفتى إقناع د.الشنيطى أن يوافق على نقله للعمل فى الثقافة الجماهيرية وجاء له بموافقة سعد الدين وهبة الذى كان يرأسها.. لكنه لم يوافق.

ويحاول مرة أخرى إقناعه بالموافقة على العمل فى مجلة الثقافة التى كان يرأسها عبد العزيز الدسوقى.. لكنه لم يوافق أيضا.

ترى ماذا كان يريد الشنيطى من الفتى.. أكان يريد أن يكون أمام ناظريه يبث فيه كراهيته وسوء معاملته .. لا ندرى..

ويشاء الله أن ينهى للفتى حيرته وآلامه النفسية ويلتحق بالعمل فى دار المعارف بعد أن قدم للشنيطى استقالته وأجبره على الموافقة..

وفى دار المعار كانت أجمل سنوات عمر الفتى العملية.. فقد التقى كبار الكتاب وربطت بينه وبينهم صداقات جيدة وذكريات جميلة .. وكان مكتبه مقصدًا للمثقفين.. والمبدعين الشباب والشيوخ.

وفى دار المعارف أحب الفتى مهنته وأبدع فيها .. وكان يقال عنه: تشاجر مع أحمد سويلم ليلا .. واذهب بكتابك إليه فى الصباح فينشره لك.. وهذا يعنى أنه كان متجردا من أى هوى شخصى.. وأن العمل شئ والعلاقات الشخصية شئ آخر.

عرف عنه ذلك طيلة عمله فى أى مكان .. لهذا كانت علاقته طيبة دائما مع كل من يتعامل معه.

كانت علاقته بأنيس منصور طيبة جدا .. وحاول أنيس إغراءه لكى ينضم إلى صحفي أكتوبر لكنه رفض وقال له: أستطيع أن أوافيك بأى موضوع تقترحه وأنا فى مكانى بدار المعارف لأنى أحب هذه المهنة.

واقتنع أنيس منصور بذلك.. وكلفه ببعض الموضوعات وكان ينشرها بلا مقابل.. هكذا.

وحينما تولى صلاح منتصر ربطت بينه وبين الفتى رابطة طيبة كذلك وكثيرا ما كان صلاح منتصر يبدى إعجابه وفرحه حينما يجد للفتى قصيدة منشورة أو كتابا جديدا أو حوارا فى صحيفة.

وفى عهد رجب البنا اختلفت الظروف.

فوجئ الفتى بأول قرار يتخذه رجب البنا بنقل الفتى نائبا لرئيس تحرير مجلة أكتوبر دون أن يأخذ رأيه فى هذا النقل.

لم يكن هناك سبب معقول لهذا النقل.. صعد الفتى إليه ليسأله: لماذا نقله من مكانه.. فكانت إجابته عجيبة حقا؟

أنا هنا اليوم.. وأنت سوف تكون غدا مكانى..

اضطر الفتى أن يرد بقوة:

هذا لن يحدث..

فسأله : لماذا

قال الفتى: لأننى ليس لدى ما لديك حتى احتل هذا المنصب.

كانت الإجابة صادمة.. أحدثت فجوة كبيرة بينه وبين رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مجلة أكتوبر.. وظلت هذه الفجوة تتسع نحو ثمانى سنوات.

وتحمل الفتى الكثير من سوء المعاملة والاضطهاد وهو لا يعرف ما وراء هذا النقل.
ويوما ما التقى د. أحمد هيكل وتحدث معه فى هذا الأمر .. فقال الدكتور هيكل: ألا تعرف لماذا فعل هذا..
قلت بعفوية: ليتنى أعرف
قال: أنت أحمد سويلم.. وهو من هو؟
قلت: ليس فى ذهنى هذا الأمر..
قال: لكنه فى ذهنه هو .. ليس لديه أى كتاب قبل أن يجئ إلى اكتوبر وأنت لديك الكثير.. لم يحصل على أى جائزة .. وحصلت أنت على عدة جوائز .. هو مجهول الاسم .. وأنت..
قاطعه الفتى: كفى يا أستاذنا.. كفى..
هكذا ازدادت الفجوة بين الفتى وبين هذا الرجل..
وانتظر بفارغ الصبر سن التقاعد (٦٠ عاما) فاستدعاه رئيس شئون العاملين فى اكتوبر ليكتب طلبا لرئيس مجلس الإدارة بالتجديد كأى صحفى إلى سن (٦٥ عاما).
أمسك الفتى بالقلم وكتب:
السيد رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير..
أتقدم بخالص الشكر إلى مؤسسة دار المعارف .. وأرجو الموافقة على تسوية معاشى.
لم يصدق رئيس شئون العاملين وقال أول واحد
قاطعه : وآخر واحد .. يا أخى أنا لدى كرامة .. كيف أضع مصيرى بين يد رجل لا يحبنى..
وبالفعل أصدر قراره بفقرة أسعدته (بناء على رغبته الكتابية) وتنتهى بذلك حياته العملية فى دار المعارف ومجلة أكتوبر.
وها هو يصبح عضوا فى اتحاد الكتاب منذ نشأته (١٩٧٦) ثم عضوا فى مجلس الإدارة منذ عهد ثروت أباظة مرورا بسعد الدين وهبة وغيرهما من عمالقة الأدباء والفكر..

ثم يختار أمينا لصندوق الإتحاد.. ثم أمينا عاما للاتحاد لسنوات طويلة مع سعد الدين وهبة وفاروق خورشيد ثم محمد سلماوى .

ويتذكر الفتى تلك الثقة الكاملة التى ربطت بينه وبين هؤلاء الرؤساء .. وكيف كان ينوب عنهم فى تسيير العمل بالاتحاد.. ويوقع بأسمائهم بعد أن يأذنوا بذلك.

ويتذكر الفتى مواقف كثيرة طيلة وجوده أمينا عاما للاتحاد منها.. حصول محمد سلماوى من الوزير فاروق حسنى على أحد المبانى الأثرية فى القلعة ليكون مقرا للاتحاد تقام فيه المؤتمرات والمهرجانات.

ويذهب الفتى مع الأستاذ سلماوى إلى المبنى المخصص ليجداها منهارا وخربا.

ويبدآن معا فى الإشراف على استعادة المبنى كما كان على معماره القديم تحت رعاية وزارة الآثار.

وكان الأستاذ سلماوى حريصا كل الحرص على الاحتفاظ بكل ما يجعل المبنى أثريا حضاريا.. حتى فى أثاثه الخاص.. وفى مواد بنائه وأسقفه وسلمه الخشبى..

ويتم المبنى.. ويكتمل أثاثه ويصبح متحفا لكبار الكتاب المصريين: نجيب محفوظ – توفيق الحكيم – أمير الشعراء أحمد شوقى – حافظ إبراهيم .. وغيرهم من الكتاب والمبدعين.

كما حصل على عدد من اللوحات الفنية لكبار الفنانين زينت جدران المبنى.

كان الفتى فخورا بمشاركة الأستاذ سلماوى فى كل صغيره وكبيرة حتى اكتمل المبنى وأقيم فيه عدة مؤتمرات ومهرجانات مهمة، مثل مؤتمر الاتحاد العام للكتاب العرب الذى كان يرأسه سلماوى لأكثر من دورة.

والحق يقال .. إن سلماوى أعطى الاتحاد كثيرا.. وانطلق به إلى الأفق العربى.. وكان سببا فى عودة الاتحاد العام للأدباء العربى إلى مصر وإقامة مؤتمراته فى القاهرة وفى غيرها من العواصم العربية.

ومن أشهر هذه المؤتمرات ما أقيم بجامعة الدول العربية بحضور أحمد نظيف رئيس الوزراء.

ومؤتمر العريش بالتعاون مع د. أحمد راتب رئيس جامعة سيناء وغيرها من الأنشطة الكبيرة..

ويشارك الفتى فى هذه المؤتمرات مشاركات جدية متميزة.

كما يواصل عضويته فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة على دورات متعاقبة.. وبرئاسة د.شوقى ضيف – ود. أحمد هيكل – ود عبد القادر القط.. والشاعر أحمد عبد المعطى حجازى.. ود. محمد عبد المطلب.

أما معرض الكتاب:

فقد استعان د. سمير سرحان بالفتى فى أكثر من معرض لتقديم الأمسيات الشعرية المتنوعة سنة بعد أخرى.. كما استعان به أيضا د. ناصر الأنصاري حينما كان رئيسا لهيئة الكتاب.

ورأس تحرير سلسلة الإبداع الشعرى المعاصر التى بدأت تصدر منذ عام ٢٠٠٤ حتى توقفت – بفعل فاعل – فى عام ٢٠١٦ .. بعد أن قدمت نحو مائة وخمسين عملا شعريا لشعراء مصر الأحياء والراحلين.. دون استثناء..وكان عامل الجودة وعامل القيمة قطبى الرحى فى اختيار وتقديم هذه الأعمال.

كما رأس تحرير سلسلة (مختارات) عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .. لكنه سرعان ما قدم استقالته نظرا لتكاسل الهيئة فى انجاز النشر .. وصدر حوالى عشرة أعداد من السلسلة..

ويعزف الفتى عن اتحاد الكتاب بعد رحلة طويلة فى مجلس الإدارة فقد رأى المناخ الذى أحاط بالاتحاد قد أصابه فى مقتل .. ورأى أنه لو شارك واستمر فكأنه جزء من هذا المناخ.. وتبعه فى ذلك الأستاذ سلماوى حيث قدم استقالته للسبب نفسه..

ويغرق الاتحاد فى نزاعات وخلافات وقضايا لا تليق بوضعه وقيمته وتاريخه ..ويتقلص دوره للأسف .. وينتقل الاتحاد العام إلى الإمارات ولا تحصل مصر على أى منصب فيه بعد أن كانت رئيسته.

إن هموم المثقفين كثيرة .. وكان الاتحاد بمثابة الملاذ الآمن الذى يحتضن الكتاب ويزيل همومهم.. لكنه الآن قد تخلى للأسف عن هذه المسئولية الوطنية.. وأنا أكتب هنا فى مارس ٢٠١٨

ويتذكر الفتى أنه عاصر فى المجالس القومية المتخصصة شعبة الآداب الأساتذة د. مهدى علام.. و د. كمال بشر.. ود. حسين نصار.. وقد درست هذه الشعبة التى كانت تضم قامات عالية فى تخصص الأدب .. عددا من الموضوعات المهمة.. كان آخرها : اللغة العربية فى وسائل الإعلام ووضعت التوصيات التى لو نفذت وفعَّلت .. لما رأينا لافتات الشوارع تكتب بلغات أجنبية.. ولا واجهات المحلات ..كأننا لسنا فى مجتمع العربى.. ووضعت اللجنة يدها على أس الداء.. وهو التعليم حيث صارت لغتنا العربية هى اللغة الثانية فى مدارسنا.. وأن هناك ظاهرة خطيرة تتمثل فى التشتت اللغوى.. فهناك لغة فصحى وأخرى عامية.. وهناك لغة مختلطة وأخرى مهجنة.. وهناك لغة التواصل الاجتماعي التى تمزج الأرقام بالأحرف العربية.. فأين نحن وأين هويتنا.

إن الهوية لأى مجتمع تشمل عناصر كثيرة فى مقدمتها اللغة .. ولنا فى دول أخرى عبرة شديدة الوضوح .. فهذه الهوية جعلت فرنسا مثلا تلجأ إلى تنقية لغتها من التلوث اللغوى الذى أصابها بدخول مفردات انجليزية.. حيث أقرت الجمعية الوطنية الفرنسية نصا فى قانون حماية اللغة يقول: يحظر انعقاد المؤتمرات العلمية التى تتخذ الانجليزية لغة للتداول.

واستطاعت فرنسا بذلك أن تحمى لغتها وتحافظ عليها فى المدارس والإعلانات ووسائل الإعلام.

وكما فعلت فرنسا.. فعلت انجلترا حينما لجأت أيضا إلى تنقية لغتها من الإنجليزية الأمريكية.

بل إن الصين نفسها أعادت النظر فى لغتها وأبعدت عنها ما لا يقبل لكى تتواصل مع العالم المعاصر وتصبح دولة كبرى.

أما نحن فهناك قرارات وقوانين ومجمع لغة.. ومؤسسات تدعو إلى استخدام اللغة العربية ولا ينفذها أحد.

وترجع هذه الأوامر العليا إلى عام ١٨٩٣ فى عهد عباس حلمى حيث كان رياض باشا ناظرا للمعارف وجاء فى ذلك الأمر فى مادته الثانية:

لا تعطى نظارة المعارف العمومية شهادة الدراسة الابتدائية أو الثانوية والشهادة النهائية من أى نوع كانت إلى أحد الطلاب مهما كانت معارفة فى المواد الأخرى إلا إذا كانت معرفته باللغة العربيه مستوفاة للشرائط المنصوص عليها فى بروجرامات الحكومة الرسمية.

وتفسر المادة الأولى ذلك بقولها:

يجب أن تكون بروجرامات المدارس الأميرية على أكثر ما يمكن من المواد لتعليم اللغة العربية حتى تتأنى معرفتها معرفة تامة ومؤكدة.

هذا كان الأمر العالى فى عهد الاحتلال البريطانى.. فماذا تم:

سارت الأمور هكذا أو تبعتها أوامر أخرى وقوانين.. حتى انفلت الأمر فى السنوات الأخيرة.. وضاعت لغتنا من بين أيدينا.. فماذا عن الأجيال القادمة؟..

ذكريات كثيرة متنوعة لا تنتهى .. عاشها الفتى وشارك فيها وشحذت موهبته وقريحته.. وأحس بمتعة المعاناة فى اكتسابها.

الفصل الرابع

الشاعر .. السندباد

كان السندباد مشغوفا بالبحر .. وبالرحلات والمغامرات التى كان يعود بعدها بزاد من المعرفة .. وزاد من التجارة معا.

صحيح كان يجلس إلى خليفة بغداد ويحكى له عن مغامراته .. ويعجب الخليفة وجلساؤه .. فقد كانت هذه المغامرات تقترب من الأساطير .. وما كان يحمله سندباد من الهدايا للخليفة يحمل الأعاجيب.

الرحلة خارج الوطن إذن مغامرة معرفية جميلة .. ويا حبذا إذا كان يقوم بها الشاعر.. ذلك الكائن الذى لا يكف عن الرغبة فى اكتشاف المجهول.. والخوص إلى عمق الوجود.

ويتذكر الفتى الشاعر أول دعوة للسفر للاشتراك فى مهرجان شعرى فى (استروجا) بيوغوسلافيا (سابقا) وسوف يجد القارئ شيئا عن هذه الرحلة .. حينما تحدث الفتى عن علاقته بالشاعر الكبير صلاح عبد الصبور.

ومن هذا المهرجان تلقى دعوة فى العام التالى (١٩٨٠) لمهرجان شعرى دولى بروتردام فى هولندا.

كان هو العربى الوحيد بين أربعين جنسية أخرى.. والذى يتحدث باللغة العربية بين لغات شتى.

وفى مثل هذه المهرجانات أو المؤتمرات الدولية .. يتاح للشاعر إلقاء قصائده بلغته القومية ثم يعقبه من يلقى ترجمة القصائد.

كان الفتى حريصا على توصيل إحساسه بأدائه الخاص إلى المتلقى الذى لا يعرف لغته العربية.. ثم يستمع المتلقى إلى الترجمة فيكتمل الإحساس والمعنى..

ولهذا فإن نجاح الشاعر فى أدائه وتوصيل الإحساس الإنسانى الكامن فى المعنى أمر مهم.. وهذا ما نجده مثلا فى لغة الموسيقى التى تنفذ وتصل إلى الوجدان بلا حواجز.

ويتذكر الفتى قيام بعض المصورين بتصوير الشعراء واحدا واحدًا.

ويفاجأ أن هؤلا ء المصورين يستخرجون مجموعة كبيرة الحجم من الصور ويبيعونها على باب المهرجان.. كما يحدث مع فنانى السينما الكبار..

سعد الفتى بما رآه.. واحتفظ ببعض هذه الصور.

وحدث فى إحدى ليالى الشعر أنه كان ضمن خمسة شعراء يحيون تلك الليلة.. وكان الوقت المتاح لكل شاعر عشرين دقيقة.

نودى على الفتى ليلقى شعره ومعه المترجم .. ثم جلس مكانه على المسرح.. ونودى على الشاعر الإيرلندى ديزموند أوجريدى ليلقى أشعاره.. وكان قد توطدت صداقتهما.

فوجئ الفتى بصديقه الإيرلندى يتوقف بعد نصف الوقت ليقول:أطلب من الصديق المصرى ؟ الشاعر أحمد سويلم أن يلقى بعضا من أشعاره مرة أخرى فى المدة المتبقية من زمنى المتاح لى..

وضجت القاعة بالتصفيق.. وقام الفتى يلقى مزيدا من أشعاره.. وكان فى هذا المؤتمر مشروع كتابة (قصيدة يكتبها الجميع) ويشرف على هذا المشروع الشاعر الروسى (فاسكوبوبا) وقد أعجبت بأشعاره المترجمة للإنجليزية وترجمت بعضها شعرا عربيا..

ويعنى هذا المشروع أن يقوم كل شاعر من الأربعين المشتركين بالقاء جزء من قصيده لديه يترجمها لأقرب لغة له.. وتدور الترجمة على بقية اللغات ثم يضيف شاعر آخر جزءا آخر للمعنى بنفس الأسلوب وهكذا.

وطلب فاسكو من الفتى أن يبدأ فقال:

ليكن ما يكون

ليكن بيننا غابة

صحراء.. بحار

ليكن ما يكون

غير أن الذى يتحدد بيننا لا يغيب

ولتكن بيننا اللغة الواحدة..

وكما نرى حرص الفتى على أن يكون المعنى إنسانيا.. يشترك فيه الجميع .. وقام بترجمتها إلى الإنجليزية.. ودارت الترجمات حتى نهاية الجلسة .. ثم بدأ كل شاعر يفعل كما فعل الفتى.. يلقى جزءا مناسبا ويترجمه.. وهكذا.

ويتطور المعنى ويتشرق ويتغرب حتى وصل إلى شاعر سويدى فقال:

إذا غابت عنى حبيبتى

غابت الشمس

ثم صمت ولم يكمل.. ولعله اكتفى بذلك..

فطالب الفتى أن يعلق فقال:

فقط يا صديقى

قال الشاعر: نعم .. فالشمس عندنا عملة نادرة.

قال الفتى: أتدرى لو غابت حبيبتى ماذا يحدث

قال: ماذا يحدث..

قال الفتى: الشمس تغيب .. ويجف النهر.. ويتساقط ورق الشجر. و ..

قاطعه الشاعر السويدى: ما هذا .. ما هذا

قال الفتى: بيئتنا يا صديقى ثرية.. والشاعر ابن بيئته.. ثم اقترح الفتى على رئيس الجلسة أن تعقد ندوة حول تأثير البيئة فى الإبداع الشعرى.. وكانت ندوة موفقة ثرية حقا.

ولم يكف سندباد عن الرحلة..

ذهب إلى أسبانيا (الأندلس) .. أى أنه زار مدريد وطليطله وغرناطة وقرطبة وأشبيليه.. حيث الآثار الإسلامية والعربية.. وكتب قصائده فى هذه الرحلة : منها: أمام تمثال دون كيشوت – وغرناطة.

ويتذكر أنه ذهب إلى الجامع الكبير بقرطبة فوجده قد تحول إلى كنيسة .. ومقبرة لتوابيت الملوك والسادة.. لكن محرابه كان باقيا كما هو.

حكى له المرشد أن أسبانيا قد استضافت مؤتمرًا إسلاميا وطلب المشاركون أن يصلوا فى الجامع الكبير مع مسلمى أسبانيا فتوجه الجميع للقبلة ما عدا البعض الذى انحرف عنها بحجة أن القبلة غير دقيقة.

وتعجب الفتى من ذلك.. وحاول أن يفهم المرشد بخطأ ما يقول لأن القبلة فى أى مكان تحسب حسابا دقيقا.

ثم زار د.صلاح فضل وكان رئيسا للمركز الثقافى المصرى فى مدريد وحكى له هذا الموقف وطلب منه الاتصال بالمسئولين عن السياحة لإصلاح هذا المفهوم الخاطئ .. وقد كان.

وعاش الفتى ذكريات الحكم العربى ومجالس الخلفاء والشعراء فى تلك البقعة العربية القديمة.

ويزور الفتى فى مدريد .. متحف الأوسكريال وهو من أكبر متاحف أسبانيا .. يشمل مقتنيات تاريخية قيمة من عصور مختلفة..

ولأن الفتى مشغوف بالفن التشكيلى قام بزيارة متحف لوحة (جرنيكا) لبيكاسو.

وهذا المتحف مخصص فقط لهذه اللوحة وليس لأعمال بيكاسو ويندهش الفتى لهذا التصميم الجميل المحكم لهذا المتحف.

دخل الفتى من باب المتحف فوجد سهما يشير إلى اليمين.. وبدأ يجد نفسه فى ممر معروض فوق جداره (كادرات) صغيرة من لوحة (جرنيكا) أخذ الممر بالفتى إلى أن وجد نفسه يتجه إلى اليسار.. ثم إلى اليسار.. حتى يصل مرة أخرى بعد أن طاف بالمبنى

المربع.. إلى قرب الباب الذى دخل منه.. ليجد سهما آخر يشير إلى باب مقابل لباب الدخول يفتح على قاعة كبيرة يعرض فيها لوحة (جرنيكا) كاملة.. بإضاءة خاصة.
جلس الفتى على المقعد الخشبى الذى يفصله عن اللوحة الكبيرة نحو عشرة أمتار.. ليتأمل هذه اللوحة التى تحكى الحرب الأهلية لإسبانية.
لقد استعاد ما رآه من الكادرات الصغيرة التى تجمعت فى هذه اللوحة التاريخية الرائعة.
مرة أخرى زار حديقة مدريد.
وهى حديقة كبيرة تدخل من بابها الكبير لتجد أمامك مساحة خضراء تتجه إلى أعلا تشقها طرقات تؤدى إلى القمة.. وحينما وصل الفتى إلى القمة فوجئ بمعبد مصرى كان قد أهدته الحكومة المصرية إلى ملك أسبانيا فى عهد جمال عبد الناصر..
ما هذا الجمال .. وما هذه الجموع الغفيرة التى تصعد إلى القمة عبر هذه الطرقات بين الطبيعة الخضراء.
إنه الإخراج الجيد والعناية الجيدة بأى أثر سواء يخص أسبانيا أو يخص أى بلد آخر.
تمنى الفتى آنئذن أن تنتقل قطع من آثار مصر إلى هذه الدول التى تقدس الآثار وتعتنى بها.
ومرة أخرى سافر إلى ماليزيا مع الشاعرين العربيين حسن عبد الله القرشى .. ويعقوب السبيعى (الكويتى) لحضور مهرجان دولى للشعر .
ويتذكر هذا الترحيب الرائع بالشعر العربى من قبل الوفود المشاركة ومن المتلقين.. ومسارعة وسائل الإعلام بعقد لقاءات مع الشعراء الثلاثة.
وكان الفتى لا يستطعم طعاما لم يأكله من قبل.. ويعتذر ويقول ضاحكا: أمى لم تطبخ هذا لى .. إذن لا آكله..
لكن الجوع كما يقولون كافر.
وهناك فى ماليزيا .. إما أن تتناول طعاما صينيا ممزوجا بالسكر والحلوى.. أو طعاما أندونيسيا ممزوجا بالملح و(الشطة).

عافت نفس الفتى هذا وذاك .. وظهر عليه الجوع والنحول ولم ينقذه من ذلك إلا صديقه الشاعر الكويتى الذى اتصل بالسفير الكويتى الذى دعانا إلى تناول الملوخية والأرز واللحم .. كما نأكل من مجتمعنا العربى.

ويطوف الشاعر بلاد أخرى مثل كينيا وإيطاليا وانجلترا واليونان وتركيا.. أما البلاد العربية فقد زارها جميعا بلا استثناء.

وكان مهرجان المربد أكثر المهرجانات شهرة فى البلاد العربية قبل تدمير العراق .. فقد كان لقاء مثمرا يجمع المثقفين والمبدعين من المحيط إلى الخليج.

ويتذكر الفتى فى إحدى سفرياته إلى (بلجراد) لحضور مهرجان أدبى أن جمع المنظمون أعضاء المهرجان لزيارة قلعة بلجراد.

ظن الفتى .. بل تخيل هذه القلعة .. لابد أنها تشبه قلعة صلاح الدين فى القاهرة.. أو قلعة قايتباى على شاطئ الإسكندرية..

بالفعل استقل الفتى مع أصدقائه سيارة مكيفة أخذت تطوف الطرق .. حتى وصلت إلى سفح جبل.. وقيل لنا سوف نصعد هذا المرتفع فى طريق لولبى..

لاحظ الفتى فى رحلة الصعود جمال الطبيعة.. فأخذ يتأملها ويتوحد معها.. حتى إنه نسى أنه صاعد ليرى قلعة بلجراد.

وبعد نحو ربع الساعة من الصعود.. وصلت السيارة إلى القمة.. وقيل لهم: هنا قلعة بلجراد.

هبط الجميع من السيارة .. وتساءل الفتى: أين هى هذه القلعة؟

فقيل له: هى التى أمامك .. هناك

نظر الفتى إلى الاتجاه الذى أشاروا إليه فوجد بناء مرتفعا مبنيا بالطوب الأحمر.

صمم أن يذهب ويتحقق بنفسه فمن غير المعقول أن يقضى هذا الوقت الذى قارب الساعة فى الطريق من أجل بناء لا يدل على أنه قلعة.

انطلق الجميع وراء الفتى حتى يتحققوا هم أيضا من وجود قلعة .

ووصل الجميع إلى المبنى ودخلوه.. فكان مقسما إلى حوائط ليس لها سقف .. وهناك سلم حلزونى يمكن صعوده .

صعد الفتى هذا السلم ونظر من خلال النافذة.. أيقن أن الرحلة على طولها كانت مجدية .. بل يكفى ما رآه الآن من الطبيعة الساحرة والمدينة العاصمة التى يحتضنها البحر. . بالتأكيد كانت رؤية شاعر.

هز الفتى رأسه للمرشد الذى شرح تاريخ هذه القلعة وكيف حمت بلجراد زمنا طويلا.

ثم قيل سوف نهبط إلى السفح مشيا على الأقدام..

قال الفتى لنفسه : كيف .. لقد صعدنا بالسيارة لمدة ربع الساعة فكيف نهبط على أقدامنا.

وكأن المرشد استمع إلى الفتى وهو يتساءل فقال:

هناك مكان مخصص للهبوط لن تشعروا بأى جهد.. بالفعل..

بدأوا رحلة الهبوط .. وكانت رحلة مدروسة بالفعل..

مجموعة من الدرجات ثم عن اليمين والشمال زهور ونباتات ولوحات فنية – وطبيعة خلف الجدران القصيرة..

لم يكن الهبوط طويلا .. ولم يستغرق وقتا.. بل استغرق الهابطين فى لوحات جمالية من الطبيعة أو من صنع الإنسان..

وينتهى الهبوط ليجد الجميع أنفسهم فى مطعم مقام على أحد فرع نهر الدانوب الأزرق.

أيقن الفتى كيف استطاع المسئولون عن السياحة فى بلجراد أن يجذبوا الزائرين إلى قلعة بلجراد .. ويجعلوهم يعيشون وقتا ممتعا.. مملوءا بالثقافة والتاريخ وجمال الطبيعة.

يتذكر الفتى رحلته إلى المغرب فى فبراير ٢٠١٨ بدعوة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الملك الحسن الدار البيضاء لإلقاء (محاضرة) فى موضوع (مجانين العشق العربى).

وكان استقبالا حافلا من عميد الكلية والأساتذة وطلاب الدراسات العليا.. وطلاب الكلية والضيوف المدعوين.

وبعد أن طاف الفتى بمفاهيم الحب لدى ابن عزم .. وغيره من المؤخين العرب.. أخذ يحكى عن الشعراء المتيمين فى العصر الجاهلى والشعراء العذريين فى العصر الأموى. وأخذ يقارن بين العاشق القديم الذى كان خصب الخيال لاختفاء المرأة عن بيئته .. والعاشق المعاصر الذى لابد أن يرى الجمال فى أمور أخرى مثل شخصية المرأة وذكائها وحضورها.

ويتلقى الأسئلة .. ويطالبونه بعمل محاضرة أخرى عن (مجنونات العشق العربى) فوعد هو بذلك وبالفعل دُعي مرة أخرى بعد مرور عام إلى عرض كتابه (شاعرات العشق العربي)

وكانت رحلة قصيرة (أربعة أيام) لكنها كانت ثرية مكثفة زار فيها بعض معالم المدينة وفى مقدمتها جامع الملك الحسن الذى شاء الملك أن يقيمه فوق الماء استنادا إلى قوله تعالى(وكان عرشه على الماء) فأمر الملك بردم جزء من البحر لإقامة المسجد على أن يسهم فيه كل مواطن مغربى ولو بردهم واحد.

ونفذ المشروع.. فكان تحفة فنية رائعة تجمع بين المعمار الأندلسي والمغربى معا..

وتتمتع الدار البيضاء بشاطئ بحرى ساحر كما هى الحال فى المدن المطلة على البحر كالإسكندرية أو بورسعيد.

الفصل الخامس

شخصيات القامات العالية

بعد أن حكيت بعض المواقف من طفولتي للقارئ الكريم.. هاأنذا أعبر الجسر من الريف إلى العاصمة.. ون الهدوء إلى الضوضاء والصخب والإيقاع السريع.

جئت إلى العاصمة حاملاً شهادة الثانوية العامة.. وتقدمت إلى كلية الآداب جامعة عين شمس – وكانت فى شبرا – وتركت أوراقي هناك ملتفتا إلى عملي الجديد فى دار القلم.. وإلى رعاية أسرتي الصغيرة: الأم وثلاثة إخوة.

وأتذكر أن خالي – محمد المعلم – صاحب الدار.. حينما جلست إليه.. أخبرني أنه يستطيع أن يلحقني بأي عمل فى أي مكان – كما يفعل مع من يطال منه ذلك.. لكنه يريدني أن أعمل معه.. وأن أتعلم أسرار مهنة النشر – من الألف إلى الياء – غمرتني السعادة.. فها هو يرى فى ما لم ير فى غيري – هكذا فهمت – ولهذا قبلت – ولم يكن أمامي غير القبول.

وبدأت الطريق من بدايته.. المخازن.. ثم المطابع.. ثم النشر.. ثم التسويق.. ثم أمينا للمكتبة.

ولكي أؤكد لخالي قدراتي وإخلاصي.. التفتّ إلى عملي بكل طاقتي.. ونسيت أنني قدمت أوراقي إلى كلية الآداب.

وأفقت بعد عامين على حقيقة خطيرة..

ربما أصبحت بعد هذين العامين ممارساً جيداً لعملي.. فلماذا لا أكمل تعليمي فى الجامعة.. وأسرعت إلى الكلية.. ففوجئت بالسيد العميد يعيد إلىّ أوراقي بحجة أنني طوال العامين الماضيين لم أقدم حتى اعتذارا.. ولم أبال بالكلية.

حاولت استرضاء السيد العميد.. لكنه كان مستندا إلى القانون ولا يود أن يخالفه.

عدت بأوراقي – وخفي حنين – خائبا يائسا.. غاضباً من تلك الظروف التى أوقعتني فى حيرة شديدة.

وكان أمامي أن أعيد امتحان الثانوية العامة مرة أخرى حتى أستطيع أن التحق بالتعليم الجامعي.. ولكن أين الوقت الذى يتيح لي ذلك وأنا أعمل من الصباح إلى المساء.

يارب.. أهكذا يكون عقابي على ذنب لم أقصده..

إنني أعمل من أجل أسرتي التى لا عائل لها إلا أنا.. أأستحق بعد ذلك هذا المصير..

ويستجيب الله لدموعي المكتومة بعد أيام قليلة من الحيرة.

فقد أعلنت جامعة الأزهر (١٩٦١) عن فتح كلية جديدة – فى مجال التطوير – باسم (كلية المعاملات والإدارة) تدرس العلوم التجارية.. وتعلن عن قبول حاملي الثانوية العامة بلا شروط.. وسوف يخضعون لامتحان تحريري وآخر شفهي.. فإذا اجتاز المتقدم الامتحانين قبل فى هذه الكلية ولن يزيد العدد عن مائة مقبول.

وعلى الفور قدمت أوراقي إلى هذه الكلية الوليدة.. ومعي عدد كبير من حاملي الثانوية العامة.. واجتزت الامتحانين والحمد لله.. وبدأت الدراسة طوال خمس سنوات.

ويقضي قانون الأزهر بعدم الجمع بين العمل والدراسة.. أي لابد أن أكون متفرغاً.

مشكلة أخرى.!

أخذت أتحايل عليها بإقامة ندوات ثقافية فى الكلية لأوهم المسئولين أنني متفرغ للدراسة..

وأذكر أن عميد الكلية – د. لطفي العيسوي – وكان أستاذا للمحاسبة دخل على وأنا أعمل أمينا لمكتبة دار القلم.. فتعجب وسألني – وقد كنت فى السنة الثالثة من الكلية – ماذا تفعل هنا؟

أجبت بصراحة: أعمل..!

هز رأسه وربت على وقال: ربنا يوفقك يا بني.
وحصلت على شهادة البكالوريوس عام ١٩٦٦ بدرجة جيد.
تلك نقطة تحول أردت أن أحكيها وأؤكد فيها لطف الله بعباده خاصة المخلصين منهم.
وأعود إلى القاهرة الصاخبة..
والحق يقال إنني طوال وجودي فى بلدتي الهادئة – بيلا – كنت أكتب الشعر وأشارك به فى الإذاعة المدرسية وفى الاحتفالات الوطنية.. وأفاخر بأنني شاعر أبدع القصائد المتنوعة التى ترضي أذواق أصدقائي وأساتذتي فى المدرسة.
وبالطبع حملت معى هذا كله إلى القاهرة.. لأواصل مسيرتي الأدبية.
وكنت أسمع عن الحركة الشعرية الجديدة وروادها الكبار.. وحينما وجدت نفسي داخلها.. بدأت أعيد النظر فيما كتبت وفيما سوف أكتب:
– ما هذا الذى كتبت وكنت أفخر به؟
إنه شعر لا يعتد به وسط هذه الساحة الصاخبة التى لا ترحم.
إذن علىّ أن أطوى كل ما كتبت فى (ملف) خاص.. وأكتب فوقه بخط واضح صريح: ما قبل التاريخ..!
وبشجاعة واقتناع.. فعلت ذلك..!
وبدأت خطواتي من جديد فى هذه الساحة الجديدة..
بدأت أعيد قراءاتي.. أقرأ بنهم كل ما يقع تحت يدي.. الشعر والرواية والفلسفة والمسرح.. وأنطلق إلى الأمسيات والندوات لا أترك واحدة دون حضورها.. أستمع وأتعلم وأتذوق وأشارك.. لعلي أكون واحداً من صناع هذه الساحة.
وثار داخلي شيطان الشعر من جديد.. ولكن برؤية مختلفة وأدوات جديدة.. ونشرت أول قصيدة لى فى بيروت عام ١٩٦٤.. وأصدرت أول ديوان لى عام ١٩٦٧.
محطات كثيرة مررت بها منذ ١٩٥٩ حتى للآن.. وشخصيات كثيرة التقيتها.
وهاأنذا أنبش ذاكرتي مرة أخرى لأستحضر طرفا من هذه اللقاءات مع بعض القامات العالية التى أقامت صرح الثقافة المصرية بما أعطت وبما أبدعت.

وكما فعلت فى المواقف السابقة.. ستكون وقفاتي مع هذه القامات سريعة قصيرة عميقة تبرز سر علو وسمو وشموخ هذه الشخصية بأفكارها وإبداعها.. ودورها وتأثيرها فى شخصيتي وإبداعي..

معا – إذن – قارئي الكريم لنكمل الرحلة..!

أنيس منصور

والقلم الرشـــيق

كنت أجلس إلى مكتبى بدار القلم حينما استدعانى هاتفى إلى غرفة صاحب الدار – خالى – الأستاذ محمد المعلم..

عرفنى بضيفة: الأستاذ أنيس منصور

وعرفه بى: هذا ابن أختى.. لكنه يقول إنه شاعر.!

لمعت عينا أنيس منصور وسألنى، أى لون من الشعر تكتب.!

قلت: العمودى والحديث.

هز رأسه وقال:

كن فى العمودى .. ولا تذهب إلى الحديث..

طبعا لم يكن هناك مجال للحوار حول هذا الموضوع.. ولهذا قطع الخال حوارنا بقوله: الأستاذ أنيس جاءنا بكتاب جميل هو: "٢٠٠ يوم حول العالم " يحكى فيه رحلاته الطويلة المتعددة شرقًا وغربًا .. ويريد من الشباب فى مثل سنك أن يقرأه قبل دفعه إلى المطبعة..

كان الأمر غريبًا حقًا .

أنيس منصور الكاتب الكبير يريد أن أقرأ كتابه قبل دفعه إلى المطبعة..

لاحقنى الأستاذ أنيس ليخرجنى من دهشتى:

يا ريت تقرؤه بعناية وأسمع رأيك..

ازداد عجبى .. ودهشتى .. وسعادتى أيضًا ..

طبعًا كان كتابًا جميلا ممتعا بأسلوب الحكى الذى تميز به أنيس منصور والذى كان حريصا على الاستماع لرأيى ورأى غيرى أيضًا من الشباب.

وتوثقت علاقتنا منذ ذاك العام (١٩٦٢) باحترام وتقدير ..

والحق يقال إن كتب أنيس منصور تتميز بأسلوب خاص به وحده .. ومن ثم فهو من أصحاب الأساليب .. وتشعر وأنت تقرأ له بأنه يقفز مع كلماته برشاقة وعفوية .. ويصل إلى وجدانك وعقلك معًا ..

وكان أنيس منصور يفخر بأنه يحصل على أحدث ما تنتجه دور النشر الأوربية قبل غيره من الكتاب والنقاد العرب .. ورأيته مرة يخرج من حقيبته رواية حديثة لكاتب كبير .. ويقول:

النسخة الوحيدة التى عبرت البحر إلى الجنوب ..

كان مثقفًا موسوعيًا .. لا عمل له سوى القراءة والكتابة .. منظم جدًا فى مواعيده .. يقسم وقته تقسيما جادا ويستغل هذا الوقت فى تغذية عقله ثم نجد عصارة هذا الغذاء فى عاموده اليومى (مواقف) وفى كل ما يكتب سواء فى أخبار اليوم أو مجلة اكتوبر أو فى الأهرام ..

استدعانى يوما إلى مكتبه وقال:

سيزور مصر بعد أيام الشاعر الروسى (يفتشنكو) .. وسوف ينشد شعره أمام الجمهور المصرى .. وله قصيده مهمة بعنوان (ارفع شموعك عاليا أيها التاريخ) وهى قصيده مهمة .. وأقترح عليك ترجمتها شعرًا.

قلت له : لكننى لا أعرف الروسيه.

قال: سأعطيك ترجمتها نثرا عربيا .. وباللغة الإنجليزية أيضا.

سهل أنيس منصور علىّ المهمة..

وبالفعل قرأت الترجمة العربية وقرأت الترجمة الإنجليزية .. لكننى وجدتنى أسترسل فى القصيدة حتى صارت ثلاثة أضعاف القصيدة الأصلية.. فلما قدمتها إلى أنيس منصور علق وقال:

إنك كتبت قصيدة أحمد سويلم بأفكار يفتشنكو ..

قلت : لقد أثارت فىّ الكثير من المعانى ..

ونشر أنيس منصور القصيدة فى الملحق الأدبى للأخبار الذى يشرف عليه فى ٤ يناير ١٩٧٠.

وكان ديوانى الأول قد صدر عام ١٩٦٧ بعنوان (الطريق والقلب الحائر) فكتب أنيس منصور فى بابه (أخبار الأدب) يشيد به فكان أول كاتب يعلق على أول ديوان لى..

وتمر الأيام .. وتقلبنا ظهرًا لبطن .. وبطنًا لظهر .. وألتحق بالعمل فى دار المعارف عام ١٩٧٧ .. وكان أنيس منصور رئيسًا لمجلس الإدارة.

وقصة التحاقى بدار المعارف لم تكن عن طريق أنيس منصور وإنما كانت عن طريق صديقى الفنان التشكيلى إسماعيل دياب مدير السكرتارية الفنية بالدار.

لقد لقينى وسألنى : أين تعمل؟ قلت: فى الهيئة العامة للكتاب .. فقال : أتقبل بأن تعمل معنا فى إدارة النشر فى دار المعارف ..

أجبته بالموافقة.

وعلى الفور صعدنا إلى الأستاذ إبراهيم خورشيد وحررت طلب العمل ووافق عليه..

وبعد نحو ثلاثة أشهر وجدت نفسى وجهًا لوجه أمام أنيس منصور على سلم المؤسسة .. فرحب بى .. وقال: أين أنت؟.

قلت : أنا هنا أعمل عندك ..

ضحك أنيس وقال: أين .. فى النشر..

قلت : نعم .. قال: إذن أنا فى انتظارك فى أى وقت ..

وتعددت لقاءاتنا بحكم العمل ..

وكان يعرض علىّ دائمًا أن أعمل معه فى مجلة أكتوبر .. لكننى كنت أقول له:

دعنى فى دار المعارف فإننى أحب هذه المهنة .. واطلب منى ما تشاء فى مجلة أكتوبر.

وبالفعل .. كنت أكتب فى المجلة بين الحين والآخر وأنا فى مكانى..

وفى عام ١٩٨٧ بدأ أنيس منصور يكتب عن الشعراء فى أخبار اليوم .. صفحة أسبوعية بعنوان : أنتم الناس أيها الشعراء..

كتب عن الصديق فاروق جويدة – والشاعرة جليلة رضا من الشعراء المعاصرين بعد أن كتب عن شوقى وشعراء المهجر..

والتقينا مصادفة .. ورأيته يقول:

أريد أن أقرأ شعرك وأكتب عنك .. أحضر لى غدًا دواوينك.

كنت قد أصدرت حتى عام ١٩٨٧ خمسة دواوين .. لكننى حملت له فقط ثلاثة منها .. حتى لا أثقل عليه ..

دخلت غرفته الكائنة فى الدور الثامن والتى تطل على النيل .. فرحب بى ثم قلت له .. وأنا أعنى أن أستفزَّ داخله ..!

أستاذ أنيس.. أريد أن تقرأ.. فإذا لم يعجبك شعرى ألق به فى النيل من هذه النافذة.. ولا تكتب.

ابتسم أنيس منصور .. وأخذ الدواوين الثلاثة .. واستأذنت فى الانصراف دون أن أسمع منه أى رد على استفزازى له ..

وبعد أيام قليلة استدعانى لمكتبه .. وقال : معك صورة .. قلت لماذا .. قال: أنت فعلا شاعر .. وقد كتبت عنك .. راجع مع – نبيل – سكرتيره – ما كتبت .. تفضل .. واحضر صورة لك .. كان عنوان الموضوع: الشاعر الصعلوك أحمد سويلم وكان مما قاله:

على الرغم من أن شاعرنا أحمد سويلم قادر على أن يكون تقليديا.. فهو يملك الموسيقى والصور البلاغية والتدفق وحرارة الأداء.. غير أنه قرر واستقر على أن يكون هكذا يؤدى ولا يهمه كثيرا أن يطربك .. إنه يغنى لنفسه ويطرب كثيرا .. وأحيانًا ينقل عدوى الطرب إليك.

وهو شاعر يكون فى لياقته الشعرية عندما يتعمق نفسه ويتحسس مشاكله الفنية والوجدانية .. هو مثل دودة القز تنسج فنها وكفنها معًا.. وتتعلق فى شقفة حريرية..

مجنون أحمد سويلم .. ومتمرد ...
أنه صعلوك .. خارج على القبيلة .. لا يحترم العهود ..
وهو كثيرًا ما يكون غاضبا .. طبيعى .. فالذى يمسكه فى يده هو قلبه .. وأحيانا عقله .. وأحيانا يكون القلب هو الذى يمسكه والعقل هو الذى يعصره .. كأنه جنين فى بطن قلب أو فى جوف عقل..
إنه من صعاليك العصر الحديث .. واحد من أبناء الغضب والسخط .. إنه يمزق قيوده .. يغير جلده .. يلف أعصابه حول عنقه ويشنق معه المعانى.. وليس الأدباء فى بريطانيا .. والصاخبون فى أمريكا إلا صعاليك العصر الحديث.. لقد خرجوا على القبيلة ولكنهم ليسوا مثل عروة بن الورد أو حاتم الطائى يسرقون ويتصدقون بما سلبوا ونهبوا.
والمقال طويل .. صفحة كاملة من جريدة أخبار اليوم .. مملوء بقصائد من شعرى يدلل بها على آرائه .. وقد نشر هذا الموضوع فى ٢٦ ديسمبر ١٩٨٧ ، ثم صدر فى كتاب له يضم عددًا آخر من الشعراء بعنوان (أنتم الناس أيها الشعراء).
وأتذكر أنه طلب منى ترشيح بعض الشعراء ليكتب عنهم .. فكتب عن بعضهم وعزف عن الآخر .. ولما سألته عن عزوفه عن أحد الشعراء الكبار.. الذى كتب عنه نقاد كثيرون .. كان رده: أنا لست ناقدًا .. لكننى متذوق .. وهذا الشاعر لم أستطع تذوقه .. ولا هو ساعدنى على ذلك.!
كما كتب عن إحدى الشاعرات الكبيرات ما آلمها وأهان مشاعرها .. كتب يقول:
إنها سمعت عن الحب ولم تجربه.!
حكم قاس على امرأة شاعرة...
ومرة أخرى يستدعينى أنيس منصور – وقد قرأ مسرحيتى : أخناتون – التى نشرت فى الأهرام على حلقات عام ١٩٨٧ أيضا بإشراف الكاتب الكبير ثروت أباظة .. وقرر أنيس منصور أن ينشرها فى كتاب يصدر عن دار المعارف .. ولم أكن أرغب أن

أنشر شيئا فى دار المعارف التى أعمل بها لكنه بروحه العالية أصرَّ على ذلك .. وصدرت المسرحية فى كتاب عام ١٩٨٩.

أتذكر أيضا أن أنيس منصور كان يرأس تحرير مجلة (العروة الوثقى) التى كانت تصدر عن الجامعة العربية.. وقد أوكل بعض الزملاء فى مجلة أكتوبر فى إصدارها أول كل شهر عربى.. وذات يوم استدعانى.. وكان غاضبا جدا.. ثم قال: إياك أن ترفض ما أعرضه عليك.

توجست من كلامه .. لكننى لم أجب لأنه كان غاضبا .. فواصل كلامه:

سوف أوكل لك ولإسماعيل دياب إصدار مجلة (العروة الوثقى) من العدد القادم .. تفضل .. خذ أوراقها وموادها من (فلان)..

لم أشأ أن أرفض وهو فى هذه الحالة الغاضبة .. وبالفعل قمت أنا وزميلى الفنان إسماعيل بالعمل .. واستطعنا أن نصدرها فى وقتها بلا تأخير.

ثم اتصل بى الشاعر الكبير محمد التهامى وكان مستشارا فى الجامعة العربية وأخبرنى بوجود شيك بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه .. مكافأة تحرير المجلة..

وأحضرت الشيك وصعدت إلى الأستاذ أنيس .. وقدمته إليه فسألنى:

– ما هذا .؟

قلت: شيك خاص بمكافآت التحرير..

قال : غريبة .. لم أتسلم هذا الشيك لأى عدد صدر من قبل ..

قلت : لا أدرى .. لماذا ..

فقال : إذن اكتب لى واقترح مكافآت الذين عملوا معك فى المجلة .. وقد كان..

وأتذكر أيضا أن زوجتى الإذاعية "رباب البدراوى" اتصلت بالأستاذ أنيس لتسجيل سهرة رمضانية بعنوان: " دعوة على السحور" لصوت العرب ففوجئت بالأستاذ أنيس يستدعينى لأشارك فى هذه السهرة مع الفنان الصحفى محمد قابيل والكاتبة الصحفية منى رجب والكاتب الصحفي حاتم نصر فريد .. وحاولت أن أعتذر حرجا من وجود

زوجتى مقدمة البرنامج .. لكن أنيس منصور أصر على وجودى قائلا: أنا صاحب الدعوة.. وأنت شاعر .. لا علاقة لى بعلاقتك مع مقدمة البرنامج..

وأختتم ذكرياتى مع أنيس منصور بهذا الموقف الذى حدث فى مسرح معهد الموسيقى العربية حيث كنا نحتفل بمرور ٣٠ عاما على إنشاء اتحاد الكتاب (٢٠٠٥).

كانت قد مرت فترة طويلة لم نلتق.. فسمعت صوته خلفى يتحدث وأنا لا أخطئ صوته.. فتلفت.. وتعجبت.. فقد كان يصبغ شعره بلون يميل إلى الاصفرار.. مخفيا لون الشيب الجميل.

وكنا فى فترة الاستراحة بعد أن أدت فرقة الموسيقى العربية لحن عبد الوهاب (قصيدة فلسطين)

أخى جاوز الظالمون المدى

فحق الجهاد وحق الفدا

سلمت عليه بالطبع وكان قد بدأ جدالًا مع د. عبد العظيم رمضان الذى يجلس قريبا منا .. وكان الجدل حول كلمة (حق) هل نضع فَتحة على الحاء أم ضمة .. كان الدكتور عبد العظيم مصرًا على وضع الفَتحة ..

وكان الأستاذ أنيس مصرًا على وضع الضمة ويستشهد بالقرآن فى قوله تعالى فى صورة الانشقاق : (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)) ثم توجه الأستاذ أنيس إلىّ وسألنى: ما رأيك يا شاعر:

فقلت : حَق الأمر حَقا: أى صح وثبت

وحُق له أن يفعل كذا: أى حَق..

وعلى كل المعنيان متقاربان مثلما نقول: دَقَّ الجرسُ .. ودُقَّ الجرس..

وأنهيت بينهما الاشتباك ..

ولم تنقطع صلتى بأنيس منصور حتى بعد أن ترك دار المعارف ومجلة أكتوبر.. فلطالما التقينا فى مناسبات كثيرة.. فيصر أن ينادينى: أهلا بالشاعر الصعلوك.!.

توفيق الحكيم
واليقظة الفكرية

سأله الصديق الكاتب الصحفى إبراهيم عبد العزيز عن شخصيتكم فأجاب توفيق الحكيم:

توفيق الحكيم شخص لا أعرف شيئا عنه كثيرا.. وأقرأ عنه أحيانا بعض ما ينشر عنه فأراه شخصا آخر.. أما أنا فأسأل نفسى دائما: ما المهمة التى كلفت بها فى هذه الحياة الموقوتة .. وكلما سرت فى طريق حياتى فطنت فجأة إلى أن هذا الطريق ليس هو الطريق الذى تصورته .. ولو كان فى طريق حياتى لافتات مثل لافتات المرور تنبهنى إلى أن هذا الطريق يؤدى إلى جهة كذا كنت تنبهت من أول الأمر ولم أواصل المسير.. فأنا إذن مخلوق ضحية عدم وجود لافتات مرور فى شارع حياتى الطويل.

من هذه الإجابة ندرك حيرة توفيق الحكيم.. وندرك أنه لولا عدم وجود هذه اللافتات التى قد تحدد خطواته.. لما كان توفيق الحكيم المفكر والمسرحى والأديب والناقد وصاحب الرؤية النافذة.

فالمبدع لابد أن يكون حرا.. يقظا.. لا حد خطواته حدود.. ومن ثم فهو يبتعد عن الأحزاب السياسية .. وعن السلطة.. لكى تغذيه الحرية بإبداعه.

ومنذ فتح عينيه فى الإسكندرية على البحر والطفولة البريئة ثم انغماسه فى جوقات المشخصاتية ومشاركته فى ثورة ١٩١٩ .. أدرك أن الفن يمكن أن يكون خلاصا وأسلوب حياة.. ولكى يحقق ذلك .. لم يكن منعزلا عن صراعات العصر وتناقضاته.. بل رحل إلى باريس ليتشرب نورها وثقافتها وعاد برؤية تقدمية تجلت فى أعماله المختلفة.. وكان عودة الروح، ملهمة للزعيم جمال عبد الناصر للقيام بثورة ١٩٥٢.

ويدخل توفيق الحكمي معارك كثيرة فى السياسة والأدب من أجل حرية التعبير.

وحينما تجلس إلى توفيق الحكيم تشعر بجاذبية شخصيته .. وحديثه الذى يجمع بين الجدية والسخرية معا.. والذى يمتلئ بحكمة السنين وتجارب الحياة واليقظة الفكرية التى لازمتة إلى آخر لحظة من عمره..

وللحكم آراء مهمة فى أهمية الدين لدى الإنسان بالمعانى الحقيقة التى بنى عليها ، وإذا تعارض العقل مع النقل نأخذ بالإيمان .. لأن النظريات العلمية تتغير من عصر إلى عصر.. لكن الإيمان لا يتغير بتغير العصور.. فنظرية نيوتن مثلا غيرتها نظرية إينشتين.. لكن الإيمان ثابت.

وكان يقول أيضا:

لماذا نتمسك بالجلاليب .. ولم تكن الجلاليب خاصة بالمسلمين فقد كان يلبسها المسلم وغير المسلم.

ولماذا نتمسك بالذقون.. والذقون كان يطلقها المسلم وغير المسلم، فالإسلام مع المنفعة .. فإذا وجدت منفعة يجب أن تأخذ بها.. وإذا وجدنا شيئا ليس فيه منفعة نبتعد عنه.. هذا هو الجوهر .. والقاعدة الإسلامية تقول: لا ضرر ولا ضرار.. وهذا هو الإسلام..

أما عن حرية الرأى لدى الكاتب فيقول توفيق الحكيم:

التفكير الحر هو التحرر من كل القيود، إذ بمجرد التقيد.. تتعطل فى الحال آلة التفكير الحر.. والتفكير الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ إلا مبدأ حرية التفكير.. ذلك كان النضال بين أحرار المفكرين وبين الزعماء المروضين.. إنه نضال حياة أو موت.!

وكنا جيل أعجب بهذا الرجل متعدد الإبداع الذى استطاع بحنكة وقدرة خارقة أن يخرج ثقافتة الأجنبية بثقافتة العربية دون أن يتخلى عن هويته.

لهذا كان متقدما ومتطورا فى أفكاره..

وأتذكر أنه فى النصف الأول من عام ١٩٨٦ فتح النار على الشعر والشعراء خاصة جيلنا الذى كان يكتب شعر التفعيلة..

وكتب يطالبنا بالبحث عن شكل جديد للقصيدة الحرة نستمده من القرآن الكريم بدل الشكل الحالى المستمد من أصول أوربية.. وصرح بأنه يقصد من هذا أن يجد الشعراء

سندًا عربيًا يعتمدون عليه.. (فالقرآن يتميز من حيث الشكل بأنه (شكل حر) أى أنه لا يتقيد بنظم ولا قافية.. وهذه الحرية التامة نبع منها هذا التعبير العظيم .. لكن لا أقصد محاكاة القرآن من حيث الموضوع والمضمون ولا يصح مجرد التفكير فى ذلك .. وإنما يجوز فقط الانتساب إليه من حيث الحرية والشكل الحر.)

وحينما قرأت هذا الرأى أدركت أن هذا الأديب الكبير كون رأيه عن أشعارنا دون أن يقرأها .. وأحسب أن شعراء التفعيلة منذ صلاح عبد الصبور مرورا بالأجيال المتتابعة كان القرآن الكريم والفكر الدينى والصوفى .. مصدرا من مصادر هؤلاء الشعراء..

قررت أن ألتقى به.

واتصلت بصديقى الكاتب الباحث والشاعر الأستاذ عبد العزيز شرف الذى كان يشرف على الصفحة الأدبية فى الأهرام وعرضت عليه رغبتى فى لقاء توفيق الحكيم فى الأهرام.

وتم اللقاء فى مكتبه.

أخذ الحكيم يتحدث عن الموسيقى والطرب والشعر التراثى والإنشاد بجاذبية وإمتاع ..

ثم استأذنته بسؤال عن رأيه فى الشعر الحديث.. فضحك وقال: أكيد لم يعجبك رأيى.. أنا قرأت لك مسرحيتك أخناتون وأعجبنى شكل الشعر الذى كتبتها به .. لكنى لا أستسيغ هذا الشكل فى القصائد..

سألته: وهل قرأت يا سيدى قصائد لأى شعراء يكتبون بهذا الشكل..

أجاب: الحقيقة لم أقرأ..

وهنا بادرته قائلا:

أنت المفكر والرائد توفيق الحكيم.. ورأيك يحترمه القارئ لأنك لا تقول شيئا دون أن تمحصه وتدقق فيه.. فما رأيك لو أحضرت لك نماذج من هذا الشعر.. ثم تكون رأيك بعد ذلك.

رحب الرجل باقتراحى.. لما رأى فيه من المنطق السليم..

وبالفعل عدت إليه بعد أيام بثلاثة دواوين.. ديوان لى.. وديوان للشاعر فاروق شوشه.. وديوان للشاعر محمد أبو سنة..

نحن إذن نمثل جيل الستينيات فلا بأس من معرفة رأى الرجل .. وتركت له فرصة القراءة وتكوين الرأى..

ثم أحلت عليه صديقى الكاتب الصحفى إبراهيم عبد العزيز ليسأله عن نتيجة قراءته للدواوين الثلاثة.. ففضل توفيق الحكيم أن يكتب مقالا مطولا فى مجلة الإذاعة فى ٥ يوليو ١٩٨٦ جاء فيه:

لقد أحسن بعض زعماء الشعر الحر البارزين اليوم بارسال بعض نماذج من شعرهم الحر وهم : فاروق شوشه – ومحمد أبو سنة – وأحمد سويلم ، وأنا لسبق اشتغالى بالقضاء ما كان يهمنى كثيرا الإصغاء إلى المرافعات الطويلة للمحامين .. بل كان يكفى شاهد إثبات واحد ليقنعنى .. وشاهد الإثبات فى هذه القضية هو شعرهم وحده.. ولو ظلوا يتجادلون بالألفاظ ويسوقون الحجج والبراهين لما ظفروا بشئ .. ولكننى عندما سمعت شاهد إثباتهم .. واطلعت على نماذج من شعرهم وضحت أمامى القضية.. بل خرجت منها بالنقطة الفاصلة: ما هو لب الجوهر فى الشعر الحر..؟

وجدته فيما يمكن أن أصفه بكلمة: عرق الذهب.

نعم.. عندما نذهب لاكتشاف (منجم) ماذا نفعل؟

إننا نجمع حفنة من التراب أو الحجر أو الحصى.. ونذهب لنحلله.. فإذا وجنا فيه عرق الذهب فإننا نعلن ظافرين اكتشافنا لمنجم ذهب.

والشعر الحر الحقيقى عندما نكتشف فيه عرق الذهب المختفى فيه فإنك تفرح للاكتشاف .. وتبقى لذة الاكتشاف مستمرة.. لأنها ليست خاطفة.. وتشعر المكتشف باحترامه لنفسه لأنه اكتشف من بين التراب ذهبا.. وهذا فضل الشعر الحر وصعوبته أيضا.. لأن قيمته فى ذاته.. إنه يحتاج منك أن تكتشفه لا أن تصفق له.. لذلك إذا أردت أن تدافع عن شعراء الشعر الحر الموهوبين الذى اتهموا بأنهم حطموا القيود .. عجزا واستسهالا فإنى أقول: العكس هو الصحيح، فهم قد حطموا القيود.. كما يحطم

الفارس الشجاع درعه.. وينزل إلى الحلبة عاريا ليس معه سوى قوته الذاتية الحرة وحدها..

ويواصل الحكيم رأيه ودفاعه بقوله:

من حسن الحظ أنى تحركت لرفع الظلم عن الشعر الحر الجيد ، وأنا بطبيعتى مع الحرية فى الفن والأدب لأنه من باب التجديد .. ولكن الباب المفتوح يغرى بالدخول لمن يستحق ولمن لا يستحق.. ويؤدى أحيانا إلى الفوضى.. ولذلك استرحت الآن واستراح ضميرى إذ وقعت فى يدى أعمال هؤلاء الشعراء البارزين.. فاخترت نماذج قليلة من هذا الشعر الحر الحقيقى.. وكان بودى أن أكثر من الاختيار لولا مساحة النشر.

ولكن هذا يكفى لإقناعنا أن التراب الذى يملأ الأرض قد نجد أحيانا فى القليل منه (عرق الدهب)

ثم قدم الحكيم نماذج شعرية لثلاثتنا..

وذهبت أشكره على هذا الرأى المنصف .. وقلت له: أرأيت يا سيدى أهمية رأيك الذى يحترمه القارئ..

ضحك توفيق الحكيم وقال:

معك حق والله..

وكسبنا إلى جانبنا مفكرا وكاتبًا ومبدًا كبيرًا .. هو توفيق الحكيم.. والذى أكد لنا سعة صدره وتجرده وموضوعيته فى الحكم على الأمور بعكس أدباء ونقاد آخرين وقفوا فى مواجهة الحركة الشعرية الجديدة موقفا عدائيا دون أن يقرأوا أو يسمحوا لأنفسهم بالمراجعة.. ووصل الأمر ببعضهم باتهام الشعراء الجدد بالشيوعية .. ولو أنهم تجشموا الجهد قليلا مثل توفيق الحكيم ، لأدركوا أن الشعراء الجدد مخلصون للوطن وللهوية العربية .. وللثقافة التراثية ويتجلى ذلك فى إبداعهم..

وعلى كل خمدت نيران هذه المعركة برأى توفيق الحكيم الذى كان يمثل قيمة فكرية كبيرة بين مفكرى عصره وأدبائه..

وكان الحكيم قد دخل معركة مع الشيخ شعراوي عام ١٩٨٣ عقب نشره سلسلة مقالات بعنوان حديث مع الله.. واتهمه فيها الشعراوي أنه يدعو للتطاول على الذات

الإلهية.. وناصر الحكيم د. يوسف إديس ود. زكى نجيب محمود.. وكادت تحدث مناظرة بين الشعراوي والمفكرين حول هذا الموضوع لكنها لم تتم.. وأخمد الحكيم بنفسه أوار هذه المعركة بعد شهر من الاشتعال حين كتب فى الأهرام يقول:

– ألهمني الصواب يارب.. فأنا أخشي أن أكون مخطئا فى حديثي إليك.. فلقد أنشأت فى هذا الحديث علاقة بذاتك العلية ليست مما يستسغه الناس بين الخالق والمخلوق.. ولم يفهموا أنها مجرد مناجاة حب علوي ليس مما يفهمه أو يؤخذ بالمدلول العادي من أنه تطاول على الذات الإلهية.. وهو ما لا يمكن أن يخطر على بال أي مؤمن بالله ورسوله.. وحسبي الله ونعم الوكيل فيمن يفهمني خطأ ورماني بالضلال دون أن ينتظر حسابك أنت يا ربي يوم الحساب.. ومع ذلك ألتمس منك المغفرة لمن ظلمني ولي وإن كنت سهوت أو أخطأت وأنت الغفور الرحيم.

وتصالح الشعراوي والحكيم بعد ذلك..

فعلا الرجوع إلى الحق فضيلة.. وقد كان الحكيم يعود إلى الحق دائما.

يحيى حقى
وسيمفونية العشـــق

فى ذكرى الفنان محمود مختَار .. كتب يحيى حفى فى جريدة التعاون عام ١٩٦٧ :
لا عجب أن كان اسمه مختار .. ليضع بين جنبيه لا روحه هو وحده بل من داخلها روح مصر ذاتها.. ليكون فنانها الأول الأوحد لم يسبقه أو يلحقه أحد .. ليعبر عن أصالتها وعظمتها .. عن إبائها وكبريائها.. عن كدحها وصبرها ... هذا هو محمود مختار الذى رحل فى يوم ٢٧ مارس ١٩٣٤ عن ٤٣ عاما وأتصوره يطوف بآثاره القائمة فى ميادين القاهرة والإسكندرية بل أدعو القارئ أن يذهب إلى هذا المتحف الصغير الجميل فى أرض الجزيرة .. ويخلع عند هذا الباب مشاغله وهمومه .. ويقف أمام هذه الآثار الرائعة: العودة من الريف – مناجاة الحب – على شاطئ النيل – عند لقاء الرجل – حارس الحقول – العودة من النهر– مالئة البلاص – بائعة الجبن . وأن يقف طويلا أمام تمثال (الخماسين) ليرى كيف يداعب الريح الحجر.. وكيف يرق هذا الحجر حتى يصبح وهو غليظ كالحرير والشفاف.

كان يحيى حقى يحمل إحساسا متفردا بالجمال الفنى .. وله كتابات كثيرة عن الفنانين والأدباء تؤكد هذا الإحساس .. وهو يرى أن قراءة الصورة تختلف من إنسان إلى آخر بقدر ما يملكه الإنسان من الإحساس والثقافة.

وأتذكر يوما ذهبت فيه مع بعض أصدقائى إلى قاعة الغرفة التجارية بباب اللوق .. لزيارة معرض مجمع لخمسين فنانا مصريا.. عرض كل فنان لوحتين..

وبدأنا نقف عند كل فنَّان ونحاول تذوق فنه..

ثم حانت منى التفاتة إلى الجهة المقابلة للقاعة فجذبتنى لوحة (بورتريه) لامرأة فتركت أصدقائى واستجبت إلى هذه اللوحة .. وكأن شيئا ما سحريا قادنى إليها.. فاكتشفت أنها

للفنان (حسين بيكار) ولكى يؤكد قيمة ووجود هذه اللوحة كانت لوحته الأخرى التى شارك بها وجاورت هذه اللوحة لبعض العشب الأخضر .. أى مستمدة من الطبيعة.
وقفت أمام هذه اللوحة مستغرقا فى التأويل والإحساس ..
وسرعان ما انضم إلى أصدقائى.. وبدأنا تؤول الشخصية النسائية التى رسمها (بيكار) .
قلت: أرى أنها امرأة خرجت من أزمة عاطفية (فاشلة) لكنها لم تستسلم .. بل تدل نظراتها على التحدى ورفض الفشل.
بالطبع اختلفت الآراء .. والرؤى..
لكن هذه اللوحة ظلت مرسومة على صفحة ذاكرتى حتى التقيت (بيكار) ذات يوم.. وحكيت له هذه التجربة..
ابتسم الفنان الكبير .. وتعجب من هذا التأويل ووافقنى عليه موافقة كاملة .
وبدأنا نتحدث عن هذا الإحساس المشترك بين الشاعر والرسام..
أعود إلى يحيى حقى الذى يحمل إحساسا مرهفا بالجمال وهو يتحدث عن المرأة فيقول:
لعل أبلغ دلالة فى نظرى على قدر المرأة عندى أننى من أجلها وحدها لا ينقطع تحسرى أن معبد الشعر مغلق فى وجهى بالضبة والمفتاح – لا أملك الدخول إلى محرابه ولو من سلم الخدم – فإنى أراها أسمى من أن أخاطبها بالنثر .. حقها أن يصاغ لها قصيدٌ جماله من قبس جمالها .. ورقته من وحى رقتها.. حتى ولو كان الكلام لا يزيد عن (صباح الخير) أو (كيف الحال)
فتهمة التحامل على المرأة منفية عنى إذا واجهت إليها كلاما لا أطيق كتمانه.. إنه منبعث من قلب جريح.. وما كانت طعنته إلا من يد هذه المرأة التى أجلها وأحبها إلى درجة الوَله.
ويبدو أن المرأة عند يحيى حقى كانت شغله الشاغل فى رواياته المتعددة : خليها على الله – صح النوم – قنديل أم هاشم – عطر الحبايب .. وغيرها .. وهى تمثل محطة مهمة فى فن البورتريه القلمى..

وقبيل رحيل يحيى حقى بسنة (رحل فى ٩ ديسمبر ١٩٩٢) كان ضيف صالون الدكتورة هيام أبو الحسن) أستاذة اللغة الفرنسية بجامعة عين شمس..

ظل يحيى حقى يتحدث عن ذكرياته وعلاقته بالفن والمرأة حديثا طويلا شائقا..

ثم بدأت التعليقات..

ذكرته بما كتب فى الفقرة السابقة عن المرأة فى حياته.. فابتسم وقبل منى هذه المداعبة .. وأنا مصرّ على أن أسمع منه المزيد..

لكنه وبذكائه اللامع .. واجهنى:

لازم الشقاوة دى يا شاعر ..

قلت له: ما لها الشقاوة .. هى التى تفجر الشعر والفن – أليس كذلك.

قال: ما دمت مصرًا سأسألك سؤالا صعبا..

قلت : اسأل يا سيدى..

قال: أنت شاعر وقارئ للتراث .. إذن ما الفرق بين العاشق القديم والعاشق المعاصر..

أدركت أنه يرد إلى الكرة لتكون فى ملعبى .. وضحك الحاضرون..

استجمعت نفسى.. وأجبت :

أولا .. ما العشق.؟

اختلف الفلاسفة والعشاق والمتيمون فى تعريفه.. ولم يفلح منهم أحد فى الوصول إلى تعريف جامع مانع– كما يقولون.. وغاية ما وصلوا إليه هو تناول صفاته وأحواله واشتقاقاته اللغوية.

فعل ذلك ابن حزم فى رسالته (طوق الحمامة).

ومن قبله أوفيد فى كتابه (فن الهوى " ٤٣ – ١٨ ق.م").

وابن داود فى كتابه (الزهرة).

وغيرهم كثير.....

ويمكن أن نقول إن الصورة الشائعة للعشق لدى القدماء تعتمد على الحب العذرى بما فيه من الحرمان والصد والهجر واللقاء والفراق والاكتئاب والفرح.

وتعتمد أيضا على الأدب الشعبى وحكاياته المتخيلة فى كتب النوادر والأخبار .
والعاشق القديم كان بينه وبين معشوقته حجاب .. أى أنه نادرا ما يراها ومن ثم جاءت قصص العشق لدى العذريين صورة شاحبة للحب المحروم.. من تحول الجسد .. إلى الكمد فالحزن ... أى أن العاشق يكاد ينظر العالم من عيون معشوقته هى..
والعاشق القديم يراقب خيمة معشوقته المحجوبة عنه.. فإذا سمع صوتها كان أجمل وأحلى من أعذب موسيقى .. وإذا أتته الريح من تلقائها شم فيها عبيرًا ألذ من عبير الورد .. وإذا ذكرت فى مجلسه .. هام على نفسه وغاب فى ذكرياته وحلمه المستحيل .. وعبر عن ذلك كله فى شعره..
ومن ثم من يقرأ أشعار العشاق القدامى يلمس نزعة الجنون والمبالغة فى رسم صورة المعشوقة لأنها مختفية عن عينيه .. بعيدة عن أذنيه.. يخفق قلبه خفقانا شديدا وهو ينشد عنها أشعاره ويتخيلها كأنها الحور العين فى جنة الأرض..
بل نجد عاشقًا مثل قيس بن الملوح يهيم على وجهه بحثا عن حبيبته فيتجه إلى الشمال ليجد نفسه فى الجنوب .. ويقف مناشدًا جبل التوباد بلا جدوى.
إذن كان العاشق القديم واسع الخيال.. يتخيل ويعبر ويبالغ ويجن.. أما العاشق المعاصر .. فقد شاركته المرأة حياته ووجوده فى العمل وفى الشارع وفى كل مكان..
لم تعد المرأة مختفية عن عينيه وعن أذنيه..
ومن ثم كان عليه أن يبحث عن جوهر المرأة وعن شخصيتها وتفردها وتميزها.. وثقافتها.. وذكائها .. وأحسب أن هذا كله يكسبها جمالا..
تبدل المفهوم الجمالى لدى العاشق – الشاعر – فلم يعد يتخيل .. فالمرأة أمامه فى كل مكان .. إذن هى فرصة سانحة للمقارنة بين امرأة وأخرى فى كل ما يمكن أن يوضع فى حسابات المقارنة.
المرأة المعاصرة إذن ليست هى المرأة القديمة التى تسيطر عليها تقاليد القبيلة.. وتخفى نفسها خلف الخباء.
المرأة المعاصرة – سافرة – بجانب الرجل العصرى..

ومن ثم اختلفت نظرة العاشق المعاصر .. فنظر إلى عقلها وإحساسها معا.. وانبهر بشخصيتها وقدرتها على العطاء والحوار .. فاكتسبت جمالا خاصا معاصرا أرضى الشعراء الذين يقدسون جمال المرأة الذى يعتمد على العقل والإحساس معا..

رضى الأستاذ يحيى حقى عن هذه الإجابة .. وأخذ الجميع يتحاورون .

ثم طلب منى أن ألقى بعض قصائدى التى تؤكد رأيى .. ففعلت ..

ولاحظت – برغم كبر سنة (١٧ يناير ١٩٠٥ – ٩ ديسمبر ١٩٩٢) أن ذاكرته ناصعة .. وأنه حكّاء عظيم .. وأنه رقيق الصوت.. هامس النغم.. مرهف الحس .. وهى صفات تتجلى فى هذا الجيل الرائع الذى يضم صفوة المفكرين والعظماء.

هذا يحيى حقى الذى لم يهتم كثيرا بالشهرة بقدر اهتمامه بالعمل والإنجاز الأدبى والإضافة الباقية حتى بعد رحيله.. ونحن هنا نذكره أديبا روائيا مفكرا عاشقا للتراث والفن والموسيقى .. ومجددا فى كل شئ .. ومن ثم وصلت إلينا أعماله تؤكد شخصيته المتفردة.

ولا نستطيع أن نغفل موقفه عام ١٩٧١ حينما انتقل من رئاسة تحرير مجلة المجلة إلى جريدة التعاون ليكون كاتباً متفرغاً.

وبمجرد أن علمت الأهرام بترك يحيي حقي لمجلة المجلة طلبت منه أن ينضم إلى الأهرام بالمبلغ الذى يحدده.. لكن يحيي حقي اعتذر عن عدم قبول هذا العرض قائلا:

– ليتكم عرضتم ذلك قبل أيام فقد تعاقدت مع جريدة التعاون.

لقد فضل يحيي حقي (التعاون) وهى جريدة عمالية محدودة التوزيع على الأهرام وكان يري أن الكتابة للعمال ضرورة وطنية لا تقل عن الكتابة للمثقفين أو للعالم العربي كله.

ويرفض يحيي حقي العرض نفسه مرة أخرى ليؤكد أن صاحب قنديل أم هاشم حر الإرادة والرأي.

صلاح عبد الصبور
الشاعر الإنسان

يكفى أن تجلس إليه خمس دقائق.. حتى تشعر أنكما صرتما أصحاباً..
شخصية آسرة.. تدخل إلى القلوب مباشرة.. وتشعرك بأنك الأثير المفضل لها..
احتضن أجيال الشعر المختلفة.. مشجعاً وموجها.. وراعيا.. حتى صار لكل شاعر – أو أديب – موقف كريم معه لا ينساه.

ولأنه تقلب فى وظائف ثقافية متعددة.. فقد استطاع من خلال هذه الوظائف أن يكتشف ويخرِّج أجيالا من الأدباء والشعراء الذين رسموا خريطة الثقافة بامتياز منذ الستينيات حتى اليوم.

وصلاح عبد الصبور تعددت ألوان إبداعاته.. حيث كتب القصيدة الشعرية فى عدة دواوين وكتب عدداً من المسرحيات الشعرية.. وله عدة كتب ضمنها نظراته النقدية الثاقبة.

وأتذكر أو أول مسرحية شعرية له هى (مأساة الحلاج) التى نشرت فى عام ١٩٦٤ وكنت آنذاك فى السنة الثانية فى كلية التجارة جامعة الأزهر.. فقمت بترشيحها لجامعة الأزهر لكي تشترك بها فى مهرجان المسرح الجامعي.

واستدعينا المخرج سمير العصفوري وأقنعناه بالمسرحية.. ثم اتصلت بالأستاذ صلاح استأذنه فى ذلك فكان جوابه بالموافقة ورجاني أن أدعوه لحضور العرض.

ويوم العرض حضر صلاح عبد الصبور وبرفقته د. لويس عوض وبعض الأدباء.. ودعوته قبل العرض لإلقاء كلمة من فوق المسرح.. وفى نهاية العرض شكر صلاح المخرج والممثلين (طلبة الجامعة) على هذا العرض الشائق.

ثم انتقلت المسرحية إلى المسرح القومي وأخرجها المخرج نفسه (سمير العصفوري) وأتذكر أنني كنت جالساً فى العرض الأول بجوار صلاح عبد الصبور.. وحينما انتهي العرض سألته: ما رأيك.

أجاب بكل صدق: والله.. عرض جامعة الأزهر أفضل.

وتمر الأيام وأصدر ديواني الأول (الطريق والقلب الحائر) عام ١٩٦٧ وذهبت به إلى الإذاعة (البرنامج الثقافي) وقدمته إلى الأستاذ إبراهيم الصيرفي مقدم برنامج (مع النقاد).

سألني الصيرفي: أهذا هو الديوان الأول؟

أجبت: نعم..

قال: آسف.. مع النقاد لا يناقش الديوان الأول.. وهناك برامج أخرى نقدم العمل الأول.

قلت له فى إصرار: لكنني أريد أن أناقشه فى برنامج مع النقاد.. حاول الصيرفي أن يقنعني بوجهة نظره وأنا مصر بعناد على رأيي.. وحينما وجدني مصراً معانداً.. اضطر أن يسألني:

– ومن تريد أن بناقشك؟

قلت بلا تردد: د. عبد القادر القط.. والشاعر صلاح عبد الصبور..

ابتسم الصيرفي عجبا وقال:

– كيف.. وهذا هو الديوان الأول.. ربما لا يوافقان على المناقشة.

قلت: وأنا أتحمل النتيجة.

أعطيته ثلاث نسح من الديوان.. وحدد لي موعداً للرد على بالموافقة أو بالرفض.

ذهبت إليه فى الموعد المحدد.. فوجدته فى انتظاري مبتسماً سعيداً.. وحينما رآني قال:

– تعال.. تعال.. سوف يناقشانك.

لم أبد أي انفعال على وجهي.. وأدركت أنه كان سعيداً بهذه الموافقة فقلت:

– الحمد لله يا سيدي

ثم فاجأني بسؤال: لماذا اخترت هذين الناقدين على وجه الخصوص.

قلت: لأنهما أكبر ناقدين فى مصر.

سألني: وهب أنهما رفضا المناقشة.

قلت بدون تفكير: لو كانا قد رفضا لتوقفت عن الشعر إلى الأبد.

هز رأسه وقال: ياه.. لسوف تكون شاعرا كبيرا والله.

وحضر الكبيران وناقشاني وأشادا بشعري.. وتوقعا لي مستقبلا فى الشعر.. والحمد لله.
وكان مما قاله د. عبد القادر القط.
– يقف الشاعر فى مرحلة وسط بين الشعر القديم والشعر الحديث.. ويعبر فى عمق وأصالة عن تجارب هى فى الواقع أكبر من سنه.
ويقول صلاح عبد الصبور:
– الديوان.. بشري لشاعر يستطيع من خلال حبه للشعر وممارسته له أن يكون فى الغد القريب صوتا من الأصوات المتميزة المحبوبة فى شعرنا الحديث.
وفى عام ١٩٧٠ تقدمت إلى صلاح عبد الصبور بديوان جديد.. وكان رئيساً لمؤسسة التأليف والنشر.. لكنه أخبرني أن لديه دواوين كثيرة جدا وحلاً لهذه المشكلة بدأ ينشر دواوين يشترك فيها بعض الشعراء.. وبالفعل صدر ديوان فى هذه السلسلة المجمعة.. وطلب منى سبع قصائد فقط اشترك بها فى ديوان مع شعراء آخرين.
ابتسمت وقلت: لن أستطيع أن أختار من هذا الديوان الجديد هذه القصائد المحدودة.. وسوف أحضر لك سبع قصائد تجمع بينها الفُرقة.
واجتمعنا – وكنا أربعة شعراء – ومعي فرج مكسيم ونصار عبد الله وعمر بطيشة نتداول فى كيفية إصدار هذا الديوان المشترك.
اتفقنا على أن يكون عنوانه: الهجرة من الجهات الأربع..
ثم اختلفنا على ترتيب الشعراء.. واتفقنا أن نحيل الأمر إلى صلاح عبد الصبور نفسه لترتيب الأسماء..
قال صلاح عبد الصبور:
الأول: أحمد سويلم.. شاعر له ديوان
الثاني: فرج مكسيم.. شاعر مسِن
الثالث: نصار عبد الله.. شاعر مقاتل (كان مجندا)
الرابع: عمر بطيشة..
وبهذا فك صلاح عبد الصبور الاشتباك ورضي الجميع بحكمه.. وصدر الديوان.

وكنت قد التحقت بالقوات المسلحة فى نوفمبر ١٩٦٨.. وكانت آثار نكسة ١٩٦٧ تجثم على صدورنا.

وفى أوائل عام ١٩٦٩ عقدت أمسية شعرية كبيرة فى الجمعية الأدبية بشارع عرابي بالقاهرة.. وكان مقدم الندوة هو صلاح عبد الصبور.. وكان الشعراء المشاركون كثيرون.

واشتركت فى هذه الأمسية بقصيدتين هما: قصيدة حزينة إلى روما (وكيف حرق نيرون روما) – ثم قصيدة (أما السفينة) مستلهما القصة القرآنية..

أنشد قبلي وبعدي شعراء كثيرون.. حتى انتهت الندوة.. ثم سأل صلاح عبد الصبور الجمهور الحضور: هل لدى أي حد تعليق أو كلمة.

رفع أحد الحاضرين – وكان مجهولا للجميع – يده.. فسمح له صلاح عبد الصبور بالكلام.. فقال:

– أريد أن أسأل الشاعر أحمد سويلم.. ماذا يقصد بروما ونيرون.

كان السؤال مفاجئا لكن صلاح عبد الصبور تولي الإجابة بقوله:

– ما على الشاعر أن يقول.. وعلينا أن نفهم كما نشاء.. لقد استخدم الشاعر الرمز بكل مفرداته.. فكيف نحاسبه.

جادله السائل: لكنه رمز واضح.

قاطعه صلاح: ربما يكون واضحا لديك ولهذا أولَّته على هوالك.. وأري أن الشاعر هنا كان موفقاً فى رمزه.. تفضل أجلس.

وكفاني صلاح عبد الصبور خطورة هذا السؤال.. وكنت واثقا أن أمن الدولة له رجاله الذين يحضرون هذه الأمسيات ويحررون التقارير عما يقال.. ولهذا خرجت من الأمسية غير مصدق أنني سوف أبيت فى بيتي.

وأتذكر فى هذا السياق أن ندوة نجيب محفوظ التى كان يعقدها فى مقهى بميدان الأوبرا.. يحضر فيها شخص تابع لأمن الدولة مكلف بكتابة تقرير عما دار فى هذه الندوة.

ولأنها ندوة ثقافية كان الرجل يقع فى حيرة.. لأنه لا يفهم ما يقال.. وعندما تأكد نجيب محفوظ أن الرجل مكلف بكتابة التقرير لكنه لا يستطيع أن يفهم ما يقال.. بدأ نجيب محفوظ يكتب بنفسه التقرير ويعطيه إياه قائلا: هذا ما قيل اليوم.. واكتبه بخطك وسلمه إلى رؤسائك.

نعود إلى صلاح عبد الصبور.. حيث تولي رئاسة الهيئة العامة للكتاب بعد الأستاذ سعد الدين وهبة.. وكون لجنة (١٩٨٠) لحصر الأعمال المقدمة التى لم تنشر وكتابة تقارير عنها.

وكنت قد تقدمت بديواني الخامس (الخروج إلى النهر) لسعد الدين وهبة وأشار عليه بالنشر.

ثم وقع الديوان فى يد عضو من أعضاء اللجنة يعادي الشعر الحديث.. فرفض الديوان.. بل أخذ يضع خطوطاً (بالقلم الرصاص) تحت بعض المفردات فى الديوان ويشير إليها على أنها (كفر وجنس.. وخروج عن الأخلاق).

وعلمت بذلك.. فذهبت إلى صلاح عبد الصبور فى مكتبه وكان معه د. أحمد هيكل.

أدرك صلاح أنني غاضب فسألني: ماذا بك.

قلت: لي الديوان الخامس وقد وفق عليه من سعد الدين وهبة.. ورفضه أحد أعضاء اللجنة (وذكرت له اسم هذا العضو).

فقال: أنا لا أعرف والله أن لك ديوانا لدينا ولا أعرف هذا الشخص الذى ذكرته.

وقال د. هيكل: معقول يا صلاح.. فلان هذا يحكم على شعر سويلم.

قلت: أنا أقبل يا أستاذ صلاح أن تقرأ أنت الديوان وترفضه..

ضحك صلاح وقال: لا تقل ذلك.. اجلس واشرب قهوتك أولا.. حتى ندرس هذا الأمر..

قلت: قهوتي أشربها حينما أعرف النتيجة.

فقال: إذن أتصل بي غدا صباحاً الساعة العاشرة.. وانصرفت.

وفوجئت الساعة العاشرة من اليوم التالي بصوت صلاح عبد الصبور يأتيني عبر الهاتف يبشرني بأن الديوان دفع إلى المطابع..

بادرني هو بالاتصال.. ولم ينتظر حتى أتصل به.. فذهبت إليه أشكره فاستقبلني.. وشربت معه قهوتي.

ثم تلقي مكالمة هاتفية من الشاعر فوزي العنتلي من المجلس الأعلى للثقافة وسمعته يقول له : أحمد سويلم.

تنبهت.. فسألني: تسافر يوجوسلافيا – مهرجان استروجا.

لم ينتظر إجابتي لكنه قال للأستاذ فوزي: أحمد سويلم.. هو عندي الآن ثم اتجه لي وقال: اسمك الرباعي، قلت: أحمد محمد محمد سويلم.

كان المهرجان يطلق عليه (مهرجان استروجا الدولي) وله قصة:

وتدل قصته على الوفاء والحب.. أمسك بخيوطها أخوان بطلان هما الشاعر المقدوني قسطنطين ميلا دينوف (١٨٣٠-١٨٦٢) وأخوه الأكبر ديمتري.

درس قسطنطين فى كلية الآداب فى أثينا وتعلم اللغة السلافية وآدابها ثم عمل مدراً عام ١٨٥٦.. والتقي مع أخيه ديمتري فى نشاط مكثف ضد استخدام اللغة اليونانية فى المناطق المقدونية.. وأخذا يجمعان معا القصائد والعادات الشعبية بهدف إثبات أصالة روح الشعب المقدوني.

وتقبض السلطات على ديمتري بتهمة مقاومة اللغة اليونانية.. فيتوجه قسطنطين إلى أثينا للتدخل فى الأمر.. فيقبض عليه هو الآخر ويسجن بجوار أخيه.

وفى أثناء وجود قسطنطين فى زنزانته المظلمة أصيب بمرض السّل.. وأضناه الشعور بالغربة فكتب قصيدته الشهيرة (الحزن من أجل الجنوب) وأهداها وهو فى السجن إلى استروجا (بلده) يقول فى أولها:

ليتنى أملك جناحى نسر
لكى أطير إلى بلادى
وأصل إلى شواطئها العريقة
لكى أنظر بعينى
ما إذا كان الظلام يغمر الشمس
عند بزوغ الفجر
وما إذا كانت الشمس
لا تزال تذكرنى وتلقانى

وقتل الأخوان فى السجن فى عام ١٨٦٢.. فأقامت استروجا حفل تأبين لهذين البطلين.. واحتفلت بمرور مائة عام على رحيلهما.. بمهرجان شعري محلي.. وأخذ يعقد كل عام حتى صار دوليا..

وأقيم متحف للبطلين.. وترجمت القصيدة لكل لغات العالم وأودعت الترجمات فى هذا المتحف.. وقد قمت بترجمتها إلى العربية وأهديتها فوق ورقة بردي إلى هذا المتحف.

أما المهرجان الشعري فكان يقام على جسر صغير فوق نهر يشق ستروجا والحضور على شاطئ النهر يقفون بالساعات ليستمعوا إلى الشعراء المشاركين بلغاتهم وبترجمة قصائدهم إلى اللغة الصربيكرواتية.

وتظل هذه الاحتفالية عشرة أيام يطوف فيها الشعراء كل مكان فى (يوغوسلافيا) قبيل التقسيم.

وقد حضرت هذا المهرجان لأكثر من مرة.. وتواصلت مع شعراء العالم وسط الطبيعة الساحرة لقرية أوهاريد باستروجا.

كان صلاح عبد الصبور شاعراً كبيراً وإنساناً راقياً حنوناً.

أما رحيله فقد كان مفاجئا..

ففي أوائل أغسطس ١٩٨١ دعاه الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي إلى بيته فى مصر الجديدة.. ودعا معه د. جابر عصفور والشاعر أمل دنقل والفنان جورج البهجوري.

وكانت الجلسة بمثابة المحاكة لصلاح عبد الصبور لأنه يعمل فى وزارة الثقافة فى وجود الوزير منصور حسن.

ضغط الجميع على مشاعر صلاح عبد الصبور المرهفة.. واتهمه البعض بأنه لم يعد (الفارس القديم) الذى يشير إليه فى شعره.

فأحس صلاح باضطراب فى قلبه..

أسرع الجميع بصلاح إلى أقرب مستشفي (مستشفي هليوبوليس) وكان الليل قد انتصف من ساعة.. لكن صلاح لم يستطع تحمل هذا الاضطراب.. فما أن وصل إلى المستشفي حتى أسلم الروح.

وفى اليوم التالي نشر الخبر وانتشر بين المثقفين..

وأقيمت أمسية لتأبينه فى دار الأدباء.. وكانت القصائد التى ألقيناها فى هذه الأمسية أكدت حزن الشعراء واتهام هؤلاء السهاري بقتل صلاح عبد الصبور.. الإنسان.. الشاعر الكبير.

وتغلق صفحة مضيئة ناصعة لرجل أعطي نفسه للشعر فأعطاه الشعر الكثير.

د. عبد القادر القط
شيخ النقاد

لو عاش أبو العتاهية عصرنا.. وحضر مجلسه بين تلاميذه ومحبيه.. لنسي مجلس الخليفة المهدي وأنشد:

أتته (الريادة) منقادة إليه تجرر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ذلك هو كبير نقاد العصر وشيخهم الدكتور عبد القادر القط الذى عاش مخلصا للرأي والكلمة.. مربياً ومثقفاً وصديقاً لعدد من الأجيال المبدعة فأحببناه وأحبنا.. وسكن فى قلوبنا.. وأسكننا قلبه.. واحتضن نزقنا.. وشغفنا وفورة وجداننا.. فأعلنا له الحب والتقدير..

جاءته جائزة مبارك متأخرة قليلاً.. بعد أن تصارع عليها الكثيرون.. فتح عينيه وهو فى الساعات الأخيرة قبل رحيله (٢٠٠٢) وهو يصارع الموت.. فتلقي خبر الجائزة.. فأحدث هزة فى قلبه.. ورعشة فى جسده.. ثم أغمض عينيه وكأنه اطمأن أن وطنه كرمه بعد أن كرمته جوائز عربية أخرى كبيرة مثل جائزة فيصل العالمية (١٩٨٠) عن كتابه – الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر– وغيرها من الجوائز.. ولعله كان يتمني أن تدركه هذه الجائزة وهو فى كامل صحته وحيويته فيشعر فقيمتها تتوج عطاءه الثري.

لم يكن د. القط مجرد أستاذ جامعي.. أو راهب فكر معتزل.. بل كان يشارك بفاعلية فى العمل الثقافي والأدبي..فرأس تحرير مجلة الشعر.. والمسرح.. والمجلة.. وإبداع.. وقام بترجمة عيون الأدب الغربي لشكسبير.. كما جاءت مؤلفاته النقدية لتؤسس

مشروعه النقدي الذى يعتمد على فكرة التأصيل وربط الخاص بالعام.. والتراث بالواقع المعاصر.

وقد خاض الدكتور عبد القادر القط معارك أدبية مختلفة مؤكداً من خلالها أهمية الذوق الجمالي ولم يقف معارضاً للاتجاهات الجديدة فى الشعر.. وأوسع لقصيدة النثر بابا فى مجلة إبداع بعنوان: تجارب..

وله ديوان شعر بعنوان (ذكريات شباب) نشر أكثر من مرة..

وأول علاقتي مع د. القط كانت فى عام ١٩٦٤..

كان هو رئيساً لتحرير مجلة الشعر..

وكنت قد نشرت أول قصيدة لي فى أحدي مجلات بيروت.. فأخذت المجلة وذهبت للقائه فى مقر مجلة الشعر.. وعرفته بنفسي وعرضت عليه القصيدة المنشورة.. فأعجب بها وسألني:

– لماذا لا تقدم لنا شعرك لننشره فى المجلة.

قلت له: معى قصيدتان.. ولك أن تختار منهما ما تشاء.

رد علىّ: بل اختر أنت وسننشرها فى العدد القادم.

واخترت القصيدة.. وبدأت أقدم له قصائدي.. وتنشر فى مجلة الشعر حتى أصدرت ديواني الأول (الطريق والقلب الحائر) وقد حكيت كيف كنت مصراً على أن يناقشني د. عبد القادر القط والشاعر صلاح عبد الصبور فى برنامج مع النقاد فى الإذاعة..

ثم دعاني الدكتور القط لأحضر جلسته الأسبوعية فى مقهى غرناطة بمصر الجديدة وكانت هذه الجلسة تضم عدداً كبيراً من النقاد والشعراء.. وكنا نثير فيها قضايا كثيرة متنوعة.. ويدلي برأيه فيها.. وتعلمنا الكثير منه..

ثم انتقلت هذه الجلسة إلى مقهى (أمفتريون) بعد هدم غرناطة.. وظلت حتى وفاته.. لكننا حرصنا على ذكراه.. فدعانا د. محمد عبد المطلب الناقد الكبير إلى الاستمرار فى عقد الجلسة الأسبوعية كل يوم جمعة.. ولا تزال تعقد حتى اليوم.

وفى عام ١٩٨٢ عقد فى أسوان مهرجان بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم.. وكان الدكتور القط على رأس الحضور فقد كان رئيساً للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة.

وكانت لديه هواية جميلة هى التصوير الفوتوغرافي..

كان يسجل بآلة التصوير دقائق الطبيعة فى أسوان.. وكنت سعيداً وهو يصورني ويصور المشاركين فى المهرجان.. ويلتقط زوايا طبيعية جميلة تؤكد احترافه لهذه الهواية.

وأتذكر له موقفا فى عام ١٩٨٧.. وكنت قد أصدرت ديواني السابع (الشوق فى مدائن العشق)

سألني د. القط مستنكراً: لماذا لم تتقدم إلى جائزة الدولة التشجيعية.

قلت له: لا أريد جوائز.. ولا أريد أن يكون شعري موضع صراع..

قال: لكن هذه الجائزة لابد أن تكون فى تاريخك..

كانت الإجابة مقنعة.. فأسرعت إلى تقديم الديوان الأخير إلى الجائزة وفاز بالجائزة التشجيعية فى الشعر.

وفى عام ١٩٩٤ كتب تقريرا عن ديواني (الزمان العصي) ليصدر فى الهيئة العامة للكتاب جاء فيه:

– يتضمن الديوان قصائد قصيرة محكمة الصياغة والبناء.. تتراوح تجاربها بين معاناة ذاتية فى الصداقة والصلات الإنسانية والحب.. ورؤية لبعض سمات العصر يقف فيها الشاعر موقف الآسي لما يشهد من تحولات يخذُل فيها الواقع الحلمَ بواقع أفضل.

ويضيف د. القط:

وعلى الرغم من أن أغلب التجارب تعبر عن شئ من الألم أو خيبة الأمل أو ذكرى العلاقات المنبتة.. فإن الشعر يظل دائما مسيطراً على شعوره فلا يأذن للعاطفة المسرفة أن تطغي على تعبيره وصوره.. بل يقدم مقتضات الفن الشعري على ضرورات البوح الصريح.. ويستعيض عن التعبير الحاد بالمقاطع الهادئة المتتابعة التى يكسبها إيقاعها الداخلي وقوافيها المحكمة تأثيراً عميقاً يفوق ما يبدو عليها من هدوء ظاهري.

ووراء المشاعر الحزينة أو الأليمة تبدو مخايل من أحلام ماضية أو مأمولة فى صداقة أكثر وفاء.. أو حب أقوى على الصمود.. أو أوضاع قديمة أحفل بالوحدة والعزة.. والديوان بطبيعة تجاربه المتعددة والصور المتوحدة الدلالة وبفنه الشعري المتميز جدير بالنشر (١٩٩٤/٦/١٤)..

لقد كان حرصي دائما على رأي هذا الناقد الكبير فى كل ما أكتب.. وكنت أسعد حينما أعرض عليه شعري وأستمع إلى ملاحظاته الثاقبة.. وكم شارك فى مناقشة أعمالي فأكسب الندوة قيمة وجمالاً..

وقد كان يسيئه ويزعجه هجوم المصطلحات الأوربية على الساحة الثقافية العربية وأثرنا هذه القضية فى جلستنا عام ١٩٩٤ وطالبناه بكتابة بحث عن هذه القضية (قضية المصطلح فى مناهج النقد الأدبي الحديث).

وبالفعل استجاب الناقد الكبير لرغبة تلاميذه وأصدر بحثاً بهذا العنوان جاء فيه:

– منذ أن بدأ النقد العربي المعاصر يحتذي بعض المناهج الجديدة فى النقد الغربي.. (وبخاصة البنيوية والأسلوبية وما يتفرع عنهما) واجه النقاد العرب عدداً كبير من المصطلحات الأجنبية كان عليهم أن يترجموها أو يعرِّبوها أو (يصوغوا) لها كلمات وعبارات مبتكرة..

وقد وفقوا فى كثير من هذا الجهد وجانبهم التوفيق أحيانا أو اختلفوا اختلافا ظاهرا فى الترجمة والتعريب من ناقد إلى آخر ومن بلد عربي إلى بلد.

ثم دلل الدكتور القط على ذلك فقال:

– يحسن أن يكون المصطلح العربي المقترح كلمة قد طال اقترانها فى الاستعمال الشائع بمعاني أو إيحاءات يصعب أن تتحرر منها فى صورتها الاصطلاحية الجديدة.. ومن أمثلة ذلك (انحراف) التى جاءت ترجمة للمصطلح النقدي (Deviation) أو (شفرة) ترجمة للمصطلح النقدي (Code)..

ثم يقول: إن الإسراف فى استخدام المصطلح على نحو ظاهر على سطح المقال يفقد الناقد أسلوبه الخاص ويواجه القارئ بأسلوب مصطنع قد يصل فى بعض الأحيان إلى حد (الرطانة) التى لا يفهمها إلا المختصون.

ويدعو البحث إلى الاحتفاظ للغة العربية بإيقاعها وقواعدها العامة دون مبالغة فى التزمت وحتى لا تتسع الفجوة بين الناقد والقارئ.

ويسوق د. القط تلك المصطلحات الغربية التى يعترض عليها ويستخدمها الحداثيون من النقاد.. وينحتونها من اللغة نحتاً خاطئا.. مثل: الاستلاب – النقد الموضوعاتي – الظاهراتية – الآلانيات –الأسلبة – التأمثل – السميأة وغيرها.

وهى مصطلحات بالغ أصحابها فى نحتها.. بعيداً عن قواعد اللغة وموازينها المعروفة.. وأثار هذا البحث نقاشاً طويلاً فى مجالس وندوات النقد.

بقى أن نقول أن د. القط كان يملك حسا شعريا متفردا.. ولولا اشتغاله بالنقد والتنظير لكان من كبار الشعراء..

وموافقة كلها تحد واقتحام..

جاءنا مرة فى جلستنا الأسبوعية – فى يونيه ١٩٩٨ وحكي لنا كيف أنه حينما غادر قريته (دكرنس) كانت له قصة حب ظلت ملازمه له فى شبابه.

لكنه لم ينل من هذه القصة سوى الحرمان والبعد والفراق طوال وجوده فى القاهرة.

ثم قال: لقد زرت قريتي أخيراً.. وتذكرت هذا الماضي الجميل.. ورأيتني أكتب قصيدة عامية بعنوان حلم يقظة: أقول فيها:

باحلم وأنا صاحى
والناس حواليا تحلم وهى نايمة
تتحول الظلمة شباك من المرمر
فوقه ستار أخضر
يلعب مع النسمة وعطرها الهادى
وابقى أنا نسمة.. وروح هايمة
تجرى ورا الماضى

وفى نهاية القصيدة يقول:

باحلم بك وأنا نايم

واحلم بك وأنا صاحى

يا نجمتى الحلوة

وبعد أن استمعنا إلى القصيدة التى أثارت الشجن.. وزلزلت فى كل منا وجدان الماضي.. جلسنا نناقش حول: هل يموت الحب أو يندثر بمرور الزمن.. واتفقنا أخيراً أن الحب مهما طال الزمن.. لن يموت.. بل يظل له وهجه الخاص.. حتى لو زاحمه فى الطريق عاطفة أخرى.

هذه شخصية د. عبد القادر القط التى جمعت بين الإنسان المرهف الحس والناقد الحصيف الشجاع.. والشاعر الذى لا يجد غضاضة عن التعبير فى شعره عن الحب حتى لو كان ذكرى قديمة.

العقاد
وشموخ الشخصية

فى كتابه (أنا) الذى يقدم فيه سيرته الذاتية يقوا عباس محمود العقاد:

– هل يعرف الإنسان نفسه؟

كلا.. بغير تردد.. فلو أنه عرف نفسه لعرف كل شئ فى الأرض والسماء وفى الجهر والخفاء.. ولم يكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء.

إنما يعرف الإنسان نفسه بمعني واحد.. وهو أن يعرف حدود نفسه حيث تلقي بما حولها من الأحياء أو من الأشياء.. والفرق عظيم بين معرفة النفس ومعرفة حدودها..

والأحرى أن يقال إن الإنسان يعرف الفواصل بينه وبين غيره فيعرف مداها.. ولا يتعداه.. وقد عرفت أنني أثق فى نفسي وأعتد عليها.. ولكني أعتقد أنني وثقت بها عن طريق النفي قبل وثوقي عن طريق الإثبات..

هذا الاعتراف هو مفتاح شخصية العقاد.. فهو يتميز بوضوح الفكر.. وشموخ الشخصية.. والمنطق المعتمد على الدقة والدرس والاستيعاب.

ومن ثم كان العقاد موسوعياً.. لم يترك علماً ولا موضوعاً إلا كتب فيه بعمق وبدقة وبإشباع لنهم القارئ.

فلا يمكن أن يذكر الفكر الإسلامي دون أن نذكر إسهاماته فى العبقريات الإسلامية ودفاعه عن العقل الإسلامي فى كتابه (التفكير فريضة إسلامية) – و(حقائق الإسلام – وأباطيل خصومة) وقد تعرفت على هذين الكتابين عندما تقدم العقاد بهما إلى دار القلم فى الستينيات من القرن الماضي.

زار العقاد دار القلم ولا أزال أذكر هذا المشهد الرهيب وهو يصعد الدرجات أمام الدار.. بقامته العالية السامقة.. وطربوشه الأحمر.. وعصاه التى لا تفارق يده..

وحينما جلس فى مكتب الأستاذ المعلم.. كان صوته مميزا.. فهو صوت أجش مفعم بالحيوية بلهجته الصعيدية التى لم تفارقه.. والتى يعطش فيه الجيم كلما جاءت فى أية كلمة.

وأتذكر أنني أخذت منه الكتابين.. وهو يقول:

– الكتابان يراجعان.. لكن حذار أن يبدل المراجع أي حرف..

كانت هناك رواية حول مراجعة كتب العقاد تقول: إن مراجعا بدل كلمة للعقاد.. وظهر الكتاب بهذا التبديل.. ولما عرف العقاد ذهب إلى دار النشر وطلب حضور المراجع.. فانهال عليه ضربا بالعصا وهو يقول: أتراجع العقاد يا فسل.

نبهت على المراجعين أن يبتعدوا عن أي تبديل للعقاد.. وصدر الكتابات وسعد بهما العقاد.

وفى كتابه: (التفكير فريضة إسلامية) يقول:

– فريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها.. فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد..

أما كتابه: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) فيقول:

– الإسلام قوة صامدة بعد مئات السنين.. صامدة أمام مجاميع الأمم الكبرى فى القرن العشرين.. سواء مجاميع الأمم التى تمثل الكتلة الشرقية أو مجاميع الأمم التى تمثل الكتلة الغربية.. أو باختصار صامدة أمام الروس والأمريكان على السواء.

وفى هذا الكتاب يرد العقاد على أباطيل الإسلام كاشفاً القناع عن مؤامرات المستشرقين والمبشرين والاستعمار والصهيونية العالمية.

وللعقاد فلسفة خاصة أقرب إلى الوعي الكوني الذى يفوق الإدراك الحسي والإدراك العقلي.

وتتصل الفلسفة لدي العقاد بالشعر.. ومن ثم جاء شعره ممزوجاً بالفكر والفلسفة إلى جانب الخيال والمجاز.

وكان ابن أخيه الأديب عامر العقاد صديقاً لي.. بل كان مندوبه فى أعماله ونشر كتبه.. ربطتني به علاقة قوية طوال حياته.

وأتذكر يوماً أنني عرفت أن صالون العقاد الذى يعقده كل جمعة سوف يحتفل بعيد ميلاده.

فكتبت قصيدة أحيي فيه العقاد.. وطبعا كانت من الشعر العمودي.. لأنني أعلم أنه لم يكن يميل إلى الشعر الحديث.

وأعطيت القصيدة إلى عامر فأعجب بها.. ودعاني إلى إلقائها أمامه.. وكانت المرة الوحيدة التى حضرت فيها صالونه واحتفلت بعيد ميلاده.

وكان العقاد رئيساً للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب وكانت مسابقات الشعر التى تعلنها اللجنة تخضع لرأيه.. أي أنه كان يقبل الشعر العمودي.. ويحيل الشعر الحديث إلى لجنة النثر..

عرفت ذلك فى عام ١٩٦٤ عندما أعلنت اللجنة عن مسابقة بين شباب شعراء الوطن العربي.

واشتركت فى هذه المسابقة بقصيدة عمودية متعددة القوافي.

وكانت فكرة القصيدة تدور حول هذا الطائر داخل قفصه لكنه كان يشعر بالحرية أكثر من الطيور خارج القفص.

وفازت القصيدة بين القصائد المشتركة.

واحتفل بتوزيع الجوائز بحضور الوزير يوسف السباعي.. وألقي العقاد كلمة أشاد فيها بالقصائد الفائزة والشعراء الشباب.. وكانت قيمة الجائزة المالية آنذاك (١٩٦٤) خمسة عشر جنيها.. وهو مبلغ كبير بمقياس ذلك الزمان.

وفى العدد الأول من مجلة الشعر الصادر فى يناير ١٩٦٤ كتب العقاد رأيه فى الشعر.. فقسم جماهير الشعر إلى ثلاثة: أظهرها جمهور الذين يهتمون بالشعر للدراسة أيا كان المقصد من هذه الدراسة للتاريخ.. أو للتقسيم والتبويب والتعليق.. أو للإعراب والتطبيق على حسب قواعد البلاغة وتقاليدها..

ويلي هذا الجمهور فى الظهور.. جمهور الهواة على السماع.

ثم يلي هذا جمهور القراء الذين يبحثون عن الشعر لأنهم يرغبون فيه.. ويعلمون يقينا أنهم يغنمون سرور قلوبهم وضمائرهم كلما بحثوا عنه ووجدوه ولا يقنعون منه بدور الانتظار إلى أن يطرق عليهم باب الدار..

ويقرر العقاد أن فريق الدارسين المحترفين تصرفهم القواعد والأشكال عما وراءها من الجوهر واللباب.. لأنهم بطبيعتهم تقليديون يتوارثون الصناعة.. ويفوتهم منها جانب الابتكار غير الموروث.. ويهمهم إعراب البيت من الشعر أو تسمية المدرسة الشعرية أضعاف اهتمامه بمعناه أو بواعث الشعور فيه.

ثم يقول:

– إن جمهور قراء الشعر هم قوام الحياة الشعرية فى كل زمان وفى كل لغة.. وهم الفيصل الأخير فى نقد الشعر وتقويمه.

ثم يلخص العقاد مذهبه فى التجديد بأن القواعد لديه غير القيود.. إذ القواعد لا غني عنها فى فن من الفنون حتى لو كانت فنون الألاعيب.. أم القيود فإنها تحجر على اللسان والوجدان.. ويحق للخارج عليها أن يسمي طالب تحرير وتجديد.

هكذا كانت نظرة العقاد للشعر.. ويبدو أن الخلاف القائم بينه وبين المدرسة الحديثة كان خلاف مسميات.. إذ القواعد بالطبع غير القيود.. وليس بفن ذلك يصنعه صاحبه بلا قواعد وبلا نظام ويطبق العقاد هذه النظرية على أشعاره هو.

وللعقاد أبيات يحفظها جميع الشعراء تتحدث عن الشعر يقول فيها:

الشعر من نفس الرحمان مقتبس
والشاعر الفذ بين الناس رحمانُ
والشعر ألسنة تفضى الحياة بها
إلى الحياة بما يطويه كتمانُ
لولا القريض لكانت وهى فاتنة
خرساء ليس لها بالقول تبيانُ
ما دام فى الكون ركن للحياة يُرى

ففـي صحائفه للشـعر ديوانُ

وهى قصيدة طويلة اتفق هو وصديقاه المازني وعلى شوقي أن يعارضوا بها قصيدة ابن الرومى:

أجْنت لك الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان : تفاح ورومان

فكتب العقاد هذه القصيدة.. وفعل الصديقان مثله..

بقى أن نقول إن العقاد رحل عنا عام ١٩٦٤ تاركاً تراثاً أدبياً وعلمياً متنوعاً.. أما أسرار صالون العقاد.. فقد باح بها أنيس منصور فى كتابه (فى صالون العقاد) وهو حكايات وطرائف شائقة تدل على عبقرية هذا الرجل ذي الشخصية الشامخة.

سعد الدين وهبة
الفارس الذى مات واقفا

حين رحل عن عالمنا فى الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٩٧.. كتبت فى رثائه قصيدة بعنوان (التحدي) قلت فيها:

حين تموت الأشجار
على قمتها سامقة
أدرك أن الدنيا تتخلى عن حجتها
فى قتل الإنسان
حين الفارس يهوى من صهوته
فى يده السيف النارى
وفى القلب الرؤيا صادقة
أدرك أن الساحة
لم تلبس ثوب العتمة
فى وجه الفرسان..

بالفعل كان فارساً.. ورحل كالأشجار واقفاً..

سبعة وسبعون عاماً فضاها سعد الدن وهبة بين البشر الأحياء.. وعاشها طولا وعرضاً.. حيث ولد فى قرية دميرة فى ٤ فبراير عام ١٩٢٥.. وانتقل من محافظة الدقهلية إلى البحيرة– دمنهور تلميذا.. وفى الإسكندرية عرف طريقه إلى باعة الكتب والمجلات فقرأ توفيق الحكيم ومجلات الرسالة والثقافة والجديد وبدأت رحلة الكتابة وهو طالب فى الدراسة الثانوية.. وفى عام ١٩٤٤ قاد مظاهرة احتجاجا على السلطة الفرنسية لقبضها على شكري القوتلي.

ثم لتحق بكلية البوليس عام ١٩٤٥ ويتخرج ضابطاً يمل فى مركز منوف ثم الإسكندرية والتحق بكلية الآداب.. وأيد ثورة ١٩٥٢ ثم استقال من البوليس ليعمل بالصحافة.

ثم بدأ عمله بوزارة الثقافة منذ ١٩٦٤ حتى استقال عام ١٩٨٠ وهو وجود ثقافي كبير فى الحياة الثقافية والأدبية.. فهو مسرحي وكاتب مقال.. وكاتب قصة.. وكاتب سيناريو أفلام وكاتب تليفزيوني.. وحصل على العديد من الجوائز.

أما علاقتي به فقد بدأت عام ١٩٦٨ حين كان رئيساً للشركة القومية للتوزيع وكنت أعمل تحت قيادته.. ورحب حينما عرضت عليه إصدار مجلة داخلية للشركة بعنوان (الكلمة)..

ثم التحقت بالقوات المسلحة (نوفمبر١٩٦٨ حتى يونيه١٩٧٤) وخرجت من القوات المسلحة لأجد نفسي فى الهيئة العامة للكتاب.

وكانت بينى وبين ريس مجلس إدارة الهيئة مشاكل كثيرة.. فذهبت إلى سعد الدين وهبة وكان رئيساً لهيئة قصور الثقافة.. أطلب منه الموافقة على نقلي لأعمل معه.. فوافق.. لكن رئيس هيئة الكتاب عاندني ولم يوافق.. حتى شاء الله أن أستقيل من هيئة الكتاب فى يوليو عام ١٩٧٧ لأعمل فى دار المعارف.

ثم نلتقي فى اتحاد الكتاب حيث كنت أميناً لصندوق الاتحاد فى عام ١٩٩٥ وكان هو نائباً لرئيس مجلس الإدارة.. وتوثقت علاقتي به خلال اللقاء شبه اليومي معه.

وكانت انتخابات التجديد النصفي قد تقررت.. وكنت من الذين يستمرون لتكملة مدتهم.. وكان هو أيضاً مستمرا.. فكلفني بإعداد الجمعية العمومية والانتخابات.

وكان رئيس الاتحاد الأديب الكبير ثروت أباظة.. يري اتحاد الكتاب وعمله من الأسرار التى يحظر الاطلاع عليها.

وحدث أن طالبني المرشحون لعضوية مجلس الإدارة.. بقائمة لأعضاء الاتحاد فسألت الأستاذ سعد.. فأجاب: طبعاً من حق المرشحين الحصول على هذه القائمة للاتصال بهم كما هى الحال فى أي انتخابات نقابية.

وعلى الفور قمت بإعداد القائمة بأعداد المرشحين وبدأت فى تسليمها لهم.

وعلم بذلك الأستاذ ثروت أباظة فاتصل بالأستاذ سعد وشكاني له.. لأني (سلمت أسرار الاتحاد للأعضاء) فكانت إجابة سعد وهبة:

يا أستاذ ثروت أنا الذى كلفت أحمد سويلم بذلك لأن الأعضاء المرشحين من حقهم الحصول على هذه القائمة.

وكان ما حدث أن ثار الأستاذ ثروت أباظة.. واعتبر ذلك تحديا وكسرا للأوامر.. أما الأستاذ سعد فكان تصرفه هادئا منطقياً..

وبدأنا معا نغير من أسلوب العمل فى الاتحاد.. خاصة حينما صرت سكرتيراً عاماً.. واستقال الأستاذ ثروت.. وصار سعد وهبة رئيساً للاتحاد.

وفى يونيه ١٩٩٧ كانت ليبيا تعاني الحصار.. ودعا سعد وهبة كل النقابات المهنية المصرية والعربية لمسيرة برية إلى ليبيا..

وكانت الرحلة شاقة مشقة شديدة..

بدأت السيارات فى التحرك من القاهرة وقادنا سعد الدين وهبة فى هذه الرحلة.. ولم نستغرق وقتا فى جمرك السلوم المصري.. لكن جمرك السلوم الليبي كان معقدً.. فظللنا فيه نحو أربع ساعات لفحص الجوازات والإجراءات الأخرى.

وهنا صحت فى مجموعة من الأصدقاء: من هنا نلغي عقولنا.

وبالفعل وصلنا إلى بني غازي.. ولم يكن لديهم أماكن ولا فنادق لاستضافة القادمين من مصر والذين يبلغ عددهم ثلاثمائة مشارك.

واستطعنا بمشقة أن نوفر أماكن للمشاركات من النساء.. وتحملنا نحن الرجال عدم النوم وعدم الراحة.

ثم جاءتنا الأنباء بأننا سوف نظير طيرانا داخليا إلى (سرت) حيث يوجد القذافي.

واستغرق ذلك ثلاث رحلات بالطيران الداخلي.. ووصلنا ظهراً إلى سرت..

قيل لنا: سيراكم الزعيم القائد بعد صلاة العصر.

انتظرنا وصلينا العصر.. ولم يحدث شئ..

قيل لنا: سيراكم بعد صلاة المغرب.

انتظرنا وصلينا المغرب.. ولم يحدث شئ..

قيل لنا: سيراكم بعد صلاة العشاء.

انتظرنا وصلينا العشاء.. ولم يحدث شئ..
وتجمع المشاركون غاضبين حول سعد الدين وهبة.. بل هدد بعضهم وكانوا من مجلس الشعب بالعودة على نفقتهم الخاصة احتجاجا على هذه المعاملة السيئة..
وأخذ سعد وهبة يسترضي الجميع وينصحهم بالصبر.. حتى كانت العاشرة مساء.. وبدأنا نتحرك بالسيارات فى الصحراء المظلمة حتى وصلنا بعد ساعة إلى خيمة القائد.
ودعونا الله ألا يطيل فى حديثه.. فنحن مجهدون لم ننم منذ تحركنا من القاهرة..
واستجاب الله لنا.. وحضر القذافي وتحدث نصف ساعة فقط.. ثم أخذنا أماكننا فى السيارات عائدين إلى القاهرة.. بعد رحلة شاقة عسيرة.. مجهدة.

ولم يمض سعد وهبة وقتا طويلاً فى القاهرة حتى داهمه مرضه الأخير فسافر إلى باريس للعلاج.. وهو يقول عن هذه التجربة المريرة.

– أعيش فى باريس فى حجرة صغيرة أنام فيها وبجوارها حجرة أخرى بها جهاز التليفزيون وأغادر البيت كي أذهب إلى معهد (جوستاف روسيه) القريب من حيث أعيش بضع دقائق فقط وأسلم نفسي لجهاز الأشعة عدة دقائق أربع مرات فى الأسبوع.. وبعد ذلك بين حجرة النوم والتليفزيون أعيش.. ما الفارق إذن إذا كانت هذه الحجرة فى باريس أو فى لندن أو فى القاهرة أو فى أي مدينة أخرى مصرية صغيرة أبو حمص مثلا أو دسوق..

لقد بدأت هذه القصة مع سعد وهبة مساء الأربعاء ٣٠ يوليو وكان موعدا لمجلس إدارة اتحاد الكتاب.. حيث شعر بشئ من الوهن والضعف قبل الاجتماع بوقت قليل.. وانتظرناه لكي يحضر.. لكنه تأخر على غير عاده فاتصلت ببيته.. وعلمت أنه ذهب إلى الطبيب وحذره من الخروج حتى يخرج من جسده الماء.. وبالفعل.. رأس الاجتماع الأستاذ فاروق خورشيد نائب الرئيس.

وبعدا نصحه الطبيب بالسفر إلى فرنسا للفحص والعلاج.. وكان الأستاذ سعد يتصل بي على هاتف بيتي صباح كل يوم ليطمئن على سير العمل فى الاتحاد.. وأخبره بكل شئ.. وأدون ما يريده لأنفذه وأستشيره فى أي جديد.

وكان آخر هاتف منه صباح الأحد التاسع من نوفمبر عام ١٩٩٧ ولمست من صوته الوهن الشديد.. لكنه حرصه على معرفة أخبار الاتحاد كان مقدما لديه على مرضه.. فهي مسئولية ليست بالهينة.. كان ذلك قبل وفاته بيومين..

أغلقت الهاتف وقلت لزوجتي.. أحسب أن هذه المكالمة هى آخر مكالمة منه.. صوته واهن جدا.. حديثه متقطع.

ودعوت له بالشفاء..

لكن الموت كان أسبق إليه من دعواتي.. ورحل سعد الدين وهبة بعد أن كتب لنفسه تاريخاً ناصعاً من الإبداع والعمل الثقافي المتميز.

عبد الرحمن الشرقاوي
القامة الشعرية العالية

كنت عزوفا طوال عمري عن الدخول فى المعارك الأدبية.. خاصة تلك المعارك المفتعلة الوهمية.. التى يخرج منها من دخلها بجراح شديدة الغور.. أما المعارك التى تستحق أن يشارك فيها الإنسان فلا بأس إذا كانت تستحق..

أذكر مثلا أن أثارت (جريدة الأدب) التى تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم وكان يرأس تحريرها الكاتبة حسن شاه.. أثارت معركة بدأتها أجيال قصيدة النثر.. باتهامهم للأجيال السابقة عليهم والذين يكتبون شعر التفعيلة بأن هؤلاء الشعراء (محافظون) (تقليديون) (متخلفون).

وظلت الجريدة طوال شهور كثيرة تستضيف شعراء قصيدة النثر.. الذين يجمعون على اتهام من قبلهم بهذه الصفات.

وكنت أقرأ لهم هذه التهم الواهية التى لا تستند إلى أي دليل فني أو أدبي وأضحك.. لأنني أدرك خفايا تلك الألاعيب خاصة ممن يدعون أنهم شعراء أو مبدعون متفوقون.

وبعد أن أفرغ هؤلاء الشعراء ما فى جعبتهم من اتهامات.. اتصلت بي إحدى المحررات فى الجريدة تطلب منى الرد عليهم.

تعجبت وسألتها: ماذا قالوا حتى يمكنني الرد عليهم.

حاولت المحررة أن تذكر شيئنا يستحق الرد عليه.. فأخفقت تماماً..

قلت لها: هم يقولون عنى مثلاً إنني (محافظ).. فهل لديهم ما يؤكد ذلك من أشعاري.. أم تريدين أن أنفي عن نفسي هذه التهمة فأقف موقف المدافع.. أم يريدون مثلا أنا أكون (سكرتير محافظ).. وضحكت.

أصرت المحررة على أن تكتب على لساني شيئا.. فقلت:

– لم أجد فى كلامهم ما يستحق أن أرد عليه.. وغالبا.. هم سوف يسعدون جدا حينما يرد أحد منا عليهم.. لكي تستمر المعركة .. وتشتعل..

ورفضت تماما أن أرد..

لكن أحد الأصدقاء الشعراء رد عليهم رداً طويلاً.. مما أشعل المعركة من جديد ونال هذا الصديق منهم أذي شديداً.

معارك كثيرة من هذا النوع آليت على نفسي ألا أدخلها حتى تعيقني عن إبداعي.. ولا تشغلني عن تفكيري.. وكتاباتي.

لكن هناك معركة شاركت فيها مع الأستاذ الكبير عبد الرحمن الشرقاوي فى عام ١٩٨٤.

أما الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي.. فقد ولد فى نوفمبر عام ١٩٢٠ ورحل فى نوفمبر ١٩٨٧.. وهو من قرية الدلاتون دقهلية.

نتذكره دائما حينما يعرض فيلم الأرض على الشاشة الصغيرة.. تلك الرواية التى تجسد مساوئ الرأسمالية والإقطاع فى أبشع صورها.. وتبرز دور الفلاح المصري وصبره وكرامته وتعلقه بأرضه.

والشرقاوي أديب وصحافي وكاتب مسرحي.. ومفكر إسلامي.

فهو أديب مبدع كتب الرواية العربية التى يؤكد فيها انتماءه لهذا الوطن.. فبجانب الأرض.. كتب روايات: قلوب خالية – الشوارع الخلفية – الفلاح.

وهو شاعر أصيل.. اشتهر عام ١٩٥٤ بقصيدته المطولة: من أب مصري إلى الرئيس ترومان.. يسجل فيها الغضب ضد أمريكا بسبب حربها فى كوريا ويندد بالأحلاف العسكرية التى تهدد الشرق الأوسط.. ومنها قوله:

وأقسم أنهمُ فى غد
سيرمونني بجميع التهم
عميل الكومنفرم
يدير بالعنف قلب النظام
وداعية من دعاة السلام
وداهية من مثيرى الشقاق
وكم عندهم من دليل يساق

وفى عام ١٩٦٧ كتب قصيدة مطولة أخرى (رسالة مصري إلى الرئيس جونسون) يندد بموقف أمريكا من حرب ١٩٦٧.

والشرقاوي كاتب مسرحي متميز.. استخدم الشعر الحديث فى مسرحه لإيمانه أنه يناسب هذا الفن.

وله فى هذا المجال: مأساة جميلة بو حريد – الفتي مهران – تمثال الحرية – الحسين شهيداً – الحسين ثائرا – عرابي زعيم الفلاحين.

وربما كان أحد رواد هذا الفن (المسرح الشعري) سبق به كثيراً من الشعراء..

والشرقاوي له جهد ثقافي فى الحياة العامة لا ينكر.. فهو قد أسس مجلة الفجر عام ١٩٤٥ مع بعض الأدباء منهم د. القط – نعمان عاشور – لطيفة الزيات – أحمد رشدي صالح وآخرين.

ورأس المجلس الأعلى للفنون والآداب.. والاتحاد العام للأدباء العرب.. ومجلة روز اليوسف.. ومنظمة التضامن لكتاب أسيا وأفريقيا (١٩٧٩) خلفا للراحل يوسف السباعي بعد اغتياله.

أما إسهاماته الإسلامية.. فيكفي أن نذكر له: محمد رسول الحرية – وأئمة الفقه السبعة.

وكان له فى الأهرام مقال أسبوعي.

إذن هو مفكر أديب شاعر مسرحي.. له قدرة ومكانته الإبداعية المرموقة.

أما المعركة التى واجهت الشرقاوي وواجهتني معه فقد كانت على صفحات جريدة أخبار اليوم (صفحة أخبار الكتب – وحكايات الأدب) بإشراف نبيل أباظة بتاريخ ١٨فبراير ١٩٨٤.

استضافت الصفحة الشاعر والناقد أنس داود بعد عودته من العمل بالخارج لسنوات طويلة.. وأفردت له مساحة الصفحة كاملة فى حوار فتح النار فيه على الحركة الأدبية التى غاب عنها طويلاً:

وما يهمنا فى هذه المعركة أن هذا الناقد أراد أن يكون أو يستعيد دوره.. فى الحياة الأدبية التى نسيته طويلا.. عن طريق إلقاء الحجارة على الشعراء.

وبدأت الصفحة تقدمه على أنه أحد النقاد الكبار.. وأحد الشعراء الكبار...

ما عينا.....

المهم.. أنه سئل عن المسرح الشعري.. فتحدث عن شوقي وعزيز أباظة حديثا منصفا ثم قال:

– وتأتي أعمال عبد الرحمن الشرقاوي كطليعة لاستخدام الشعر الحر فى الدراما الشعرية ولكنها تسقط فى وهرة التعبير المباشر ونظم المقولات السياسية لأن موهبة أعمال عبد الرحمن موهبة محدودة.. مع تقديري له كمفكر وكاتب روائي كبير.. وقدراته على التعبير بالصورة واستغلال العناصر الموسيقية واللعب بالرمز الشعري تكاد تكون غير موجودة فى مسرحه.. فأخفق هذا المسرح وفى ظني أنه أغلق أبوابه لتبدأ بعده مرحلة العطاء الخصب الثري فى مسرح صلاح عبد الصبور.

حكم هذا الناقد على الشرقاوي بمحدودية الموهبة وإخفاقه فى المسرح الشعري.

ثم تتابعت الأسئلة فسأله عن الشعراء.. فنراه يمسك العصا من الوسط مع البعض ويدعي أنه لم يقرأ البعض الآخر.. ثم يقول:

أما أحمد سويلم فبعض شعره جيد لكن الكثير منه يعتبر من ظواهر الانحطاط فى حركة الشعر الحر.. بما يضم من ركاكة الأبنية وضحالة الرؤية..

ثم أخذ يتحدث عن نفسه ويقول:

أما أنس داود وربما آخرون.. فهم يمثلون تقدماً مستمرا يتجدد كل عام ويسجل ليذاع فى التليفزيون.. وبذلك يدخل الشعر العربي ونغمة الكلمة العربية كل بيت وكل أذن.

وأحدث هذا الحوار أثارا متباينة فى الوسط الأدبي..

واتصلت بالأستاذ الشرقاوي وتحدثنا طويلا فى هذا الأمر.. وكان شديد الغضب والتأثر..

عرضت عليه أن يكتب رداً.. فقال: أكتب أنت..

واتفقنا على ذلك..

وفى فبراير ١٩٨٤ نشر ردي الذى عنونته (قل لنا: من تكون أولا) وسميته (صامت الدهر) الذى هبط القاهرة بعد سنوات طويلة يجمع فيها المال والهدايا.. ويريد أن يزيح من أمامه الأدباء الشرفاء الذين لم يغرهم السفر ولا جمع المال والهدايا.

ثم تحدثت عن أعماله التى أصدرها – على نفقته الخاصة – أي التى أصدرها هو وليس عن طريق دور النشر التى نشرت لي ولغيري.. وللشرقاوي أيضاً..

وكشفت ألاعيبه ونفاقه مع بعض الأسماء التى جاملها من أجل حديث يذاع له أو مساحة يكتب فيها.

وكان ردي كاشفا لأهداف هذا الناقد المبدع الحاقدة على الساحة الأدبية المصرية..

وبعد نشر هذا الرد اتصل بي الأستاذ الشرقاوي يشكرني على رده.. وزرته فى مكتبه.. وأخبرني أن هذا الناقد يريد أن يعتذر لنا.. فما رأيك..

قلت له يا أستاذ عبد الرحمن هناك مثل شعبي يقول: تشتمني فى ساحة وتصالحني فى حارة.. دعه يكتب هذا الاعتذار فى مكان مقروء..

وحاول الناقد أن يفعل هذا على استحياء.. بعد أن أسقطت قناعه أمام القارئ الحصيف.

واستمرت علاقتي بالأستاذ الشرقاوى فى إطار من التقدير والاحترام حتى أخر يوم من حياته.

طاهر أبو فاشا
آخر ظرفاء العصر

أنتمي إلى جيل ارتبط بالإذاعة وبرامجها.. وغذى خياله واستمتع بكل ما يقدمه هذا الجهاز الصغير (الراديو).

وأحسب أن العالم العربي من المحيط إلى الخليج عرف أم كلثوم وعبد الوهاب عن طريق الإذاعة.. وكان الخميس الأول من كل شهر يوم عيد لدي كل عربي وهو يستمع إلى كوكب الشرق تشدو بأغنياتها الرائعة.

كما استمعنا أيضا إلى صوت طه حسين فى حديث الأربعاء.. وإلى العقاد وإلى كبار الأدباء والمثقفين.. فتعرفنا على أصواتهم من خلال الإذاعة.

وكان الصديق الشاعر فاروق شوشة يحرص فى برنامجه اليومي (لغتنا الجميلة) على أن يبدأه بصوت طه حسين:

– لغتنا العربية يسر لا عسر.. ولنا أن نضيف إليها ما لم يكن مستخدما فى الزمن القديم.!

أما هذه الحلقات الدرامية (ألف ليلة وليلة) فكانت أكثر تأثيراً فى وجدان المستمع.. فكنا نحرص على الاستماع إليها ومتابعتها يومياً.

كان طاهر أبو فاشا هو كاتب حلقات ألف ليلة وليلة.. وكان أسلوبه جميلاً.. ولغته ممتعة.. وتعبيراته رشيقة.. وكان محمد محمود شعبان (بابا شارو) هو مخرج هذه الحلقات.. أما الممثلون فكانوا من كبار الفنانين.

أما طاهر أبو فاشا فكان شاعراً رقيقاً.. لغوياً متميزا.. ظريفا فى حديثه وتعاملاته جمع بين الحكمة والأدب.. برغم امتلاء حياته بالأسى.. وكأنه جعل السخرية مخرجاً ومهرباً من هذا الأسى.. ومن الفكاهة حكمة وعزاء لقلبه الجريح.

ولد طاهر أبو فاشا فى مدينة دمياط فى عام ١٩٠٨ وتخرج فى كلية دار العلوم عام ١٩٤٠ وتوفي فى ١٢ مايو عام ١٩٨٩.. أما أعماله الشعرية فقد جمعها ونشرها صديقه الشاعر الكبير عبد العليم عيسي فى مجلد واحد يضم ستة دواوين.

وربما نلاحظ قلة عدد دواوينه التى لا تتناسب مع عمره الطويل.. وربما تُعزي قلة عطائه الشعري إلى اهتمامه بالأعمال الإذاعية والدرامية التى استنفدت طاقته الإبداعية.. فإلى جانب حلقات ألف ليلة وليلة.. له أيضا ألف يوم ويوم.. وله أوبريت رابعة العدوية.. ومسلسل أعياد الحصاد – وهى صور غنائية مستمدة من حياة الفلاح المصري فى الريف.. إلى جانب أبحاث مختلفة فى اللغة والتاريخ والتراث لا تقع تحت حصر.

تعرفت إليه فى وقت مبكر.. وذهبنا معا إلى الندوات والأمسيات الشعرية فى كل مكان.

وكان يتميز بخفة الظل.. والشخصية الآسرة.

وكنا نكثر من حضور ندوات الشعر والمشاركة فيها فى الجامعات.. فتجتمع حوله الطالبات.

ويحكي أبو فاشا بعض هذه المواقف الطريفة قائلا:

– تقترب منى فتاة جميلة تأسر العين والقلب.. فأسألها: أتقرضينه (يعنى هل تكتبين الشعر).. فإذا أجابت الفتاة الجميلة إجابة جاهلة كأن تقول: أنا لست فأرة.. سقط جمالها.. وإذا فهمت الفتاة سؤالي.. قلت لها: أسمعيني.. فإذا كان شعرها رديئا سقط جمالها.. وإذا كان جيدا ازدادت فى عيني وقلبي جمالاً.

ومرة سافرنا معا إلى دمياط مسقط رأسه لحضور أمسية شعرية.. ورأيته يقول لي:

– إن لي طقوساً هنا فى دمياط.. وأريدك أن تشاركني إياها.

قلت موافقا: طبعا.. أليست طقوسا جميلة.

قال: سوف تري..

ثم أمر سائق السيارة إلى الاتجاه نحو عنوان معين..

وتوقفنا أمام دكان حلاق.. ثم قال:

– هذا أول طقس.. أحلق عند هذا منذ طفولتي.. وأنا أدعوك أيضا إلى قص شعرك.
مددت يدي إلى رأسي وقلت:
– لكنه ليس طويلاً.
قال بحزم: ألم توافقني على مشاركتي طقوسي.
هززت رأسي ولم أستطع أن أفلت من وعدي.. وقصصت شعري أنا أيضاً..
ثم مررنا بالسيارة على المعهد الديني بدمياط.. فقال:
– هذا هو المعهد الذى تلقيت فيه تعليمي الأزهري قبل الانتقال إلى القاهرة والالتحاق بدار العلوم.. ولي فيه ذكريات كثيرة.
قلت له: احك لي شيئا من هذه الذكريات.
قال: كنا جيل نتميز (بالشقاوة) جدا.. نهرب من الدراسة.. ونجلس على المقهى المجاور حتى ينتهي اليوم الدراسي ثم نعود إلى البيت.
ومرة كنت فى فناء المدرسة مع بعض الأصدقاء وأذن لصلاة الظهر.. ورأيت شيخاً كان يدرس لنا أصول الفقه يقترب منا.. ويزجرنا لأننا لا نذهب لأداء الصلاة.
فأسرعنا – خائفين – إلى المسجد.. ودخلنا.. وأقيمت الصلاة لكنني لم أكن على وضوء.. فلما لمحني الشيخ ناداني قائلا:
– تعال يا شيخ طاهر.. صل إماما بنا.
ثم سحبني من ثيابي دون أن أخبره أنني لم أكن على وضوء.
خضعت لإرادة الشيخ ووقفت إماما.. حتى سجدت وسجد معي الجميع ثم أسرعت وتسللت وخرجت سريعا من المسجد دون أن يراني أحد.. وقد حرمني الشيخ بعد ذلك من الدراسة أسبوعا نظير ارتكابي هذه الجريمة.. بالرغم من أنني أخذت أبرر له أنني لم أكن على وضوء.. وخشيت ألا تصلح الصلاة.. لكنه لم يقبل عذري.
وكان طاهر أبو فاشا لا يترك السيجارة من فمه حتى آخر لحظة من حياته وقد اجتمعنا عليه مرة نناشده بالتخفيف أو الامتناع فأنشد يقول من شعره:
معللةٌ كأن النار فيها

دبيب اليأس يصرخ من إهابي
وأحسب أننى أشعلت فيها
بقايا مهجتى دون الثقابِ
تخذِّرُ من همومك وهوهمُّ
وتوردك المعاطبَ كالرغابِ
كأنى حين أنفثها دخانا
وأغرق فى سحابتها سحابى
أحيل قليل أيامى بخورا
وأعقده على هذا الضبابِ
هربت لها على علمى بأنى
أفر من العذاب إلى العذابِ

وكنا معا بين أعضاء لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة سنوات طويلة.. وكنت حريصا على أن أمر عليه وآخذه من بيته (فى ميدان الجيش بالعباسية) لنذهب معا إلى الاجتماع وأعيده إلى البيت.

وأظل طول الطريق مستمتعا بحكاياته وذكرياته التى لا تنقطع.. والتى كنت أتمني أن أجلس إليه لأسجل تلك الذكريات دون تدخل منى.. ولكن القدر لم يسعفنا.

وكانت ذكرياته وحكاياته متنوعة.. مع كبار الأدباء والمفكرين والسياسيين.. بل كان راوية لأشعار القدماء بذاكرة صافية.

وكان عندما أشاكسه يصيح فى وجهي: أخرس وربك الأكرم.. حشرك الله يوم القيامة سباكاً.

وكانت مهنة السباكة آنذاك قد ارتفع سعرها كثيراً.. فأقول له:

ربما أكون غنيا مثل السباكين.. ونضحك.

أما فى اللغة فقد كان حجة فى الفصحى.. لكنه كان يقول: ليس هناك ما يسمى خطأ فى اللغة.. فالقدماء سوّغوا كل الأخطاء وأولوها.

لكنه مع ذلك كان يكره (اللحن) فى النطق.. وله تشبيهات غريبة يطلقها على الشعراء والكتاب.

سألته مرة عن رأيه فى شعر أحد الشعراء المعاصرين فكانت إجابته:

– شعره مثل خشب مكتبه الذى يجلس خلفه.

ولم يزد عن ذلك! ولنا أن نفهم ما نشاء.. ونتخيل كما نشاء.

وكنا فى جلسات لجنة الشعر نصغي إليه وهو يتحاور مع د. أحمد هيكل رئيس اللجنة ويتجادلان حول قضية ما.. فكان أبو فاشا يمتلك الأدلة والحجج التى تجعل د. هيكل يسلم برأيه.. ونسلم نحن كذلك.

كان طاهر أو فاشا حكاءا بامتياز.. صاحب أسلوب رشيق مؤثر يعرض من خلاله ثقافته الواسعة وعلمه العميق.. ورؤيته الفنية والأدبية فأبكانا وأضحكنا.. فشاركناه بكاءه وضحكه.. بكل الصدق والحب والتقدير.

د. أحمد مستجير
وزراعة الفقراء

يقول جان بول سارتر فى كتابه (الكلمات):

– أكثر الناس يأتون إلى هذا العالم بلا مناسبة إلا من كانت له خصوصية.

والخصوصية التى يقصدها سارتر تعني التميز العقلي أو الفني أو الأدبي الذى يجعل من الإنسان قيمة مضافة إلى الإنسانية.

وهؤلاء المتميزون هم قلة – فى كل العصور – لكن منجزاتهم تتجلي فى هذا التطور والتقدم الذى أصبح عليه العالم فى المجالات المختلفة.

ويذكر التاريخ عباقرة وعظماء تميزوا فى عصور مختلفة.. فكونوا حلقات متتابعة متراكمة أسعدت البشرية بنا قدم هؤلاء إليها من منجزات وإضافات.

وأتحدث اليوم عن واحد من هؤلاء الذين شغلهم إسعاد البشرية.. فبدأ وركز جهوده على الفقراء.. ذلك هو الدكتور أحمد مستجير.

التقينا فى دار المعارف.. جاءني يحمل كتبه التى أودعها فكره العلمي المستنير ووضع لها عنوان (فى بحور العلم).

بالطبع للعلم بحور وليس بحرا واحدا.

سعدت بلقائه وبكتبه التى ظلت تصدر حتى يوم رحيله.

ود. مستجير من مواليد ١٩٣٤ فى قرية الصلاحات – دقهلية.. وقد كان فى مرحلة الدراسة الثانوية مشغوفاً بالبيولوجيا.. ومدرسها (خليل أفندي) الذى كان يشجعه على حب هذا العلم.

وها هو ينطلق من الريف حاملاً معه هموم الفلاحين.. وآلامهم.. إلى القاهرة.. وكثيرا ما تساءل: ماذا يمكنه أن يقدم لهؤلاء البسطاء من الفلاحين؟

كان السؤال حافزا له على الاجتهاد والتقدم فى كلية الزراعة – حتى تخرج منها وعمل بها معيدا – ثم مدرساً.. ثم أستاذاً.. ثم عميداً (١٩٨٦-١٩٩٥) وأخذ يطور فيها.. ويشجع زملاءه على البحث العلمي فى مجال (زراعة الفقراء) كان المفهوم جديداً..

فهو قادم من الريق.. من الحقول.. وهو على وعي بمعاناة الفلاحين الفقراء الذين قد لا يجدون قوت يومهم إلا بالكاد.

سأل نفسه يوماً: ما فائدة هذه الصحراء التى تحيطنا من كل جانب.. إنها تتميز بالملوحة العالية التى تحول دون زراعة القمح والأرز وغيرها من الحبوب.

أخذ يبحث ويبحث ويجرب زراعة الأنسجة ودمج الخلايا والهندسة الوراثية ومقاومة الملوحة لكي يستطيع أن ينتج القمح والأرز وإنتاج سلالات تتحمل الملوحة.

ونحج فى ذلك..

مرة تحدثت إليه وهو يشرح لي هذه التجربة.. وسألته عن أحلامه قال:

– حلمي أن نزرع الصحراء.. ولا نشعر أنها عدوا لنا ولأرزاقنا.

وكتب مرة يقول:

– موزع أنا بين شاطئين كلاهما خصب وثري.. أجلس على الشاطئ وأستعذب التأمل فى الآخر.. إن الفن أنا.. والعلم نحن.. وأنا ذبت فى النحن وأحن إلى الأنا.. وأعرف أن الفن هو القلق وأن العلم هو الطمأنينة.. فأنا مطمئن أرنو إلى القلق.

هكذا كان تفكيره القائم على الخيال من أجل تحقيقه وتجسيده.. ومن ثم كان شاعراً يكتب الشعر الجميل.. وله بحث مهم العروض الشعري وكثيراً ما كنا نجلس لنتبادل الاستماع إلى آخر قصائدنا..

وكان فى الوسط الثقافي يلقب بألقاب مختلفة منها: نصير الفقراء.. ومنها الأديب المتنكر فى صورة عالم.

وحينما سئل عن هذا الانحياز للفقراء أجاب:

– أنا أنحاز إلى الأرض الريفية لأنني ابنها.. وربما كان تفوقي فى كلية الزراعة (كلية الفلاحين) بسبب عشقي للزراعة والخيال واللون الأخضر.. والريف عشقي الأبدي.. ومنبع الرومانسية المتأججة داخلي.

أصدر كتب مهمة فى مجال تخصصه.. أهمها وأبرزها (فى بحور العلم) فى ستة أجزاء.

وأذكر أنه حين جرب زراعة القمح والأرز فى أرض صحراوية وقرأت هذا الخبر اتصلت به مهنئاً.. وقلت أريد أن أري هذه النتيجة.. فجاءني بكيسين صغيرين أحدهما للقمح والأخر للأرز.

سألته: لماذا لا تعمم هذه التجربة.

قال: أحاول إقناع المسئولين.. دون جدوى.

قلت: ولماذا دون جدوى.

قال: هناك محتكرون لهذه التجارة يشوهون أن تجربة فى هذا المجال حتى لا يفقدوا عروشهم.

وظل د. مستجير يقاوم ويجرب ويناضل فى إقناع المسئولين.. حتى يوم وفاته.. (ديسمبر ٢٠٠٦).

أتذكر أيضاً هذا اللقاء الذى جمعني به عام ١٩٩٥ فى مبني الاتحادية وكنا ضمن وفد ثقافي دعي لتهنئة الرئيس السابق حسنى مبارك على نجاته من الاغتيال فى أديس أبابا.

كنت أجلس إلى جواره.. ولا نترك شاردة ولا واردة إلا ونعلق عليها بسخرية شديدة.

بدأ الاحتفال.. وقام شاعر كبير بإلقاء كلمة نائبا عن المثقفين وضع فيها الرئيس مكان القديسين.

علقنا على ذلك ساخرين من هذا الشاعر الذى عرف عنه أنه رجل لكل العصور.. ولم نستعجب من ذلك..

ثم قام شاعر آخر.. وألقي قصيدة (عصماء) تذكرني بهذه المدائح الشعرية التى يتكسب بها الشعراء من الخلفاء.. ويبدو أنه خطى بشئ بعد إلقاء هذه القصيدة.

التفت إلى د. أحمد مستجير فقال:

– لماذا لا تسمعنا أنت شيئا كما فعل زملاؤه.

كان داخلي يغلي ويشتعل بالغضب والعجب معا.. فما الذى يلجئ شاعرا على هذا التدني مهما كانت المكافأة والجائزة.

قلت للدكتور مستجير.. سوف تري فى الأيام القادمة.

وانتهي اللقاء.. وفى حلق كل منا غصة شديدة.

وحينما جلست إلى مكتبي فى بيتي رأيتني أكتب قصيدة طويلة ساخرة عنوانها (فيتو).. جاءت على النحو:

– ولك القهر يا سيدى
وأنت تزف جنازة عرسى
وتفلح أن تعصر الآن من رئة الليل
كأسى..
– لك العمر يا سيدى
لك العمر.. ما كان منه.. وما لم يكن
لتطلق فيه خرافك
تطلق فيه ذئابك
تعبث.. تشرب..
تقتات عرسى..

واستمر على هذا النحو:

– لك البحر...
– لك الحلم...
– لك الأرض..
– لك العام والشهر واليوم
أعيادنا والمواسم
– لك الشعر...
– لك الشكر...

وهى قصيدة طويلة.. وبعد أنت انتهيت منها اتصلت بالدكتور مستجير وقلت:

– كما وعدتك.. هل أسمعك؟

قال: أرجوك..

وأسمعته القصيدة.. فتعجب.. وحذرني من نشرها..

لكنني قلت له: لن تفهمها السلطة.. ولن يتذوقها إلا المثقفين والنخبة.

وبالفعل دفعتها إلى الأهرام ونشرت فى ١٩٩٥/٧/٩ على ربع صفحة.. وبالطبع.. لم تفهمها السلطة.. وفهمها المثقفون والنخبة..

وحينما قرأها د. مستجير بي قائلا:

– أريد أن أطمئن عليك..

قلت: أنا بخير يا صديقي.. لا تقلق.. أريد فقط منك جائزتي.

ضحك وقال: أكيد كيس قمح وكيس أرز.

قلت: أفضل جائزة والله.

واستمرت علاقتنا.. وها هو فى مؤتمر أدباء الأقاليم الذى عقد فى الفيوم فى ٢٠٠١ يختار رئيساً للمؤتمر.. وكانت كلمته مؤكدة للعلاقة الوثيقة بين العلم والأدب..

وجاء فى هذه الكلمة:

– أعرف أن العلم فى حد ذاته – فى أيامنا هذه – يقدم مادة خصبة وفيرة للشعراء والأدباء.. وأطمع أن تلجئوا إليه يا أصدقاء تثرون به إنتاجكم.. وأعرف أن العلم لن يتسلل فى هدوئه الجميل إلى إنتاجكم إلا إذا أصبح جزءا من حياتنا وصبغ المجتمع بلونه.. ولقد جعلت مهمتي الآن أن أذيع العلم وأدعو إليه آملاً أن يملأ عليكم الجو ويقدح زناد قرائحكم.

هكذا كان إخلاصه للعلم والأدب معا..

أما قصة رحيله فكانت عجيبة حقاً..

لقد كان يتمتع بصحة جيدة.. وكان يجلس فى النمسا يحضر أحد المؤتمرات العلمية.. ثم عاد إلى غرفته ليشاهد فى التليفزيون ضحايا حرب لبنان.. فأحس بألم فى دماغه..

نقل على أثره إلى المستشفى.. فشخص هذا الألم بجلطة دماغية.. أصابته نتيجة انفعال قوي.. ولم يستطع الأطباء إنقاذه.. فرحل عن عالمنا فى ١٧أغسطس عام ٢٠٠٦.

وفقدنا رائدا عالما أديبا.. كان يحمل أحلام الفقراء.. ويعمل من أجل الفقراء.

محمد المعلم

الفارس المعاند

يقاس نجاح الإنسان بقدرته على اختراق الصعاب.. ورفض الفشل والعناد من أجل تحقيق الهدف.

وربما كان هؤلاء الذين يحملون هذه الصفات.. قليلين فى حياة البشر.. ومن ثم كانوا علامات على تقدم البشرية.. بما قدموه من عطاء.. وما أنجزوه من أعمال..

ومحمد المعلم – خالي– اجتمعت فيه هذه الصفات.. ومنذ فتح عينيه على الحياة (١٩١٧) فى ريف – الكوم الطويل – مركز بيلا.. ثم ها هو يتخرج فى كلية العلوم.. ويرفض أن يكون معيداً بالكلية.. ويتجه إلى الصحافة.. ثم الإذاعة.. ثم أنشأ دار القلم عام ١٩٥٩ (سوق التوفيقية بالقاهرة) وأصدرت كتباً للعقاد وطه حسين وأنيس منصور ومصطفى مشرفة وعبد الحميد سماحة وغيرهم.

وفى عام ١٩٦٦ أممت دار القلم.. لكن المعلم لم يستسلم بل أنشأ دار الشروق بالقاهرة عام ١٩٦٨.. وسانده ولده النابه إبراهيم المعلم.. ثم أنشأ فى بيروت شروق انترناشيونال عام ١٩٨٣.. وكان من أهم مشاريعه إصدار (موسوعة الشروق) التى اشترك فى تحريرها أكثر من ٢٥٠ من صفوة العلماء والمفكرين والأدباء فى مصر والعالم العربي.

وتولي المعلم رئاسة اتحاد الناشرين لفترة طويلة.. ثم رحل عن عالمنا فى عام ١٩٩٤.

ولو كان لأحد من الأحياء أن بشعر بما قدمه هذا الفارس المعاند.. فلن يكون أكثر مني.

فقد بدأت عملي معه فى عام ١٩٥٩ بعد حصولي على الثانوية العامة.. وكان إصراره أن أعرف هذه المهنة (النشر) بكل تفاصيلها.. فمررت على كل مراحلها ممارساً محباً حتى صرت خبيرا بها خبرة كبيرة.

استطاع المعلم أن يدفعني منذ طفولتي لكي أكون رجلاً صغير السن.. وكان شديد الحب لأمي.. داعما لها فى تعليمي أنا وإخوتي بإصرار شديد.. وحينما حضرت إلى القاهرة وألحقني بالعمل معه فى دار القلم.. بدأ يعلمني كيف تكون الحياة وكيف أذوق ثمرة العمل والاجتهاد.. وكيف أبني نفسي وأصبح عصاميا بما منح الله الإنسان من إرادة ومقدرة.

كانت عيناه علىّ.. مرة يقسو علىّ قسوة المعلم الذى يطمع فى أن أكون ناجحاً ومميزا بين أقراني..

ومرة يحاسبني على أمور أراها صغيرة وتافهة لا تستحق الحساب.. وكأنه يريد ألا يترك هذه الصغائر حتى تكبر وتسد على دروب النجاح.

ومرة يتسامح بإرادة قوية.. فى خطأ قني فى عملي ويقول: الحسنات يذهبن السيئات.

وكنت قد التحقت بكلية المعاملات والإدارة – التجارة – جامعة الأزهر.. ودرست عناصر التكلفة لأي منتج.. ففاجأته يوماً بتكلفة حقيقية لطبع أحد الكتب وسعد بهذه التكلفة التى شملت عناصر المواد الخام والعمالة والتخزين وغيرها.. وجعل منها أساساً لتكلفة وتسعير الكتب.

ولم تمض سنوات حتى تشربت منه علمه.. ونضاله.. وعناده.. وخبرته.. وقدرته على حل المشاكل.. وشجاعته فى اقتحام الصعاب.. وابتسامته وهو يناضل.. وسخريته من وطأة الأقدار.. وتحديه للفشل.. وخصامه لليأس والقنوط.. وطموحه الناري ارفع مهنة النشر فى مصر والوطن العربي.

أذكر فى المؤتمر الثالث للكتاب العرب الذى عقد فى القاهرة (فبراير ١٩٦٧) وكان وقتها رئيسا للشركة القومية للتوزيع.. أذكر أنه أعلن طموحه فى كلمات قليلة جاء فيها: (إن الكتاب لابد أن يصل إلى القارئ حيثما يكون دون أن ننتظر حتى يسعى القارئ إلى الكتاب فيأخذه بعد مشقة الانتقال ودفع الثمن).

وقد كان هذا التصور خطة عمل لمن جاء بعده فى هذا الموقع.. حيث كانت منافذ البيع الممتدة على طول الوادي.. والمعارض تقام باستمرار فى مناسبات مختلفة.

وأتذكر أنه أعلن برنامجه الطموح بإنشاء نادي الكتاب وكنت واحدا من الذين أشرفوا عليه من أجل تكوين رابطة من القراء حول الكتب وتوصيل الكتاب إليهم بكل السبل.. وكان من المتوقع لو استمر هذا المشروع أن يطمئن كل ناشر إلى أنه سيوزع من كتابه الجديد بعدد أعضاء هذا النادي بانتظام.

وكأنه كان يهدف من هذه المشروعات الرائدة إلى تحويل القارئ أو المواطن إلى قارئ دائم.. وتحويل القراءة لتكون عادة يومية.

وبمناسبة دار المعارف.. كنت فى عام ١٩٦٦ قد عملت أميناً عاماً لمكتبة دار القلم – ٢٦ يوليو – واستطعت من خلال هذه المكتبة أن أؤسس لرؤية جديدة لكل من يمارس مهنة بيع الكتاب.. فلا بأس بأن أحمل مؤهلاً عاليا وأعمل أميناً لمكتبة لأن هذا العمل عمل ثقافي بالدرجة الأولي.. ووفقني الله إلى اقتراح أساليب جديدة للبيع.

وسمع بي الأستاذ سيد أبو النجا رئيس مجلس إدارة دار المعارف – وكان يدرس لي فى الكلية مادة التسويق.

وطلب أبو النجا من المعلم أن يستغني عني لأعمل أميناً للفرع الجديد لدار المعارف فى شارع شريف.

واستدعاني المعلم وطرح علىّ هذا العرض.. فسألته: أتريد أنت أن تستغني عنى..؟

قال: بل أنا أمين معك.. ولك حرية القبول أو الرفض.

قلت بإصرار: طبعا أرفض.. لأن حياتي مرتبطة بك.

واعتذر المعلم للأستاذ سيد أبو النجا..

لكن تمر الأيام والسنون وألتحق بدار المعارف عام ١٩٧٧ وأظل بها حتى أصبح مديراً عاماً للنشر.

وعندما علم المعلم بالتحاقي بدار المعارف ابتسم وقال:

– لقد اعتذرت فى يوم ما عن دار المعارف.

قلت: ربما لكي أقبلها الآن.. وضحكنا.

ويضربوه فى القلب..

لكنه سرعان ما ينهض من كبوته جواداً جامحاً يأبي الاستسلام ضارباً المثل والقدوة لأنه صاحب مبدأ.. ورائد مهنة.. وفارس ميدان.

وفكر فى عمل موسوعة عربية شاملة..

وربما جاءه هذا الحلم بعد أن حقق جانباً منه عام ١٩٦٥ بإصدار (الموسوعة العربية الميسرة) بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين وبإشراف العالم الكبير محمد شفيق غربال.. وعضوية مجموعة من أكبر مفكري مصر فى مقدمتهم: د. زكى نجيب محمود – ود. سهير القلماوي.. وغيرهما.

أقول حقق بعض الحلم فى هذه الموسوعة.. لكنه كان يطمح إلى موسوعة أكبر وأشمل.. فكانت موسوعة الشروق.

وتنال الشروق جوائز محلية وعالمية.

وأتذكر أنني قدمت خمس قصص من ألف ليلة وليلة إلى الشروق عام ١٩٨٢ وقام الفنان مصطفى حسين برسمها.. ونالت الشروق بها جوائز عالمية قيمة.

وقبل رحيل المعلم.. قسم العمل فى دار الشروق بين ولديه إبراهيم وعادل.. فجعل إبراهيم يختص بالنشر والطباعة.. وعادل بالتوزيع.

ثم انفصل عادل وأسس الشروق الدولية.

خمسون عاماً من الثقافة والكتب والفكر العربي والإسلامي.

هكذا كان المعلم.. وهكذا ورثت دار الشروق نجاح دار القلم..

وأختتم هذه الوقفة بما قاله المعلم فى الاحتفال بالمفكر العالمي (روجيه جارودي) عند زيارته للقاهرة.

(إن روجيه جارودي المفكر الإسلامي الذى عاش حياته على قمة مفكري الغرب يعتبر منعطفا مهما فى التاريخ الحديث للدعوة الإسلامية لا بصفته مستشرقا ولمن بصفته مسلما وجد الحلول الحقيقية لنظم المجتمع – اقتصاديا واجتماعيا وأحكاما ونظم حكم.

رحم الله والدي وخالي ومعلمي وداعمي محمد المعلم.. الذى لولا رعايته لي لما وصلت إلى مكاني الذى أعتز به وأحمد الله عليه.

شخصيات أخرى

لقد قدمت أحد عشر شخصية من القامات العالية التى التقيتها وكانت لي معها مواقف كثيرة.

ولكن.. لم تكن هذه الشخصيات فحسب هى التى حفرت فى ذاكرتي فهناك شخصية أخرى ليست أقل من هؤلاء قيمة وتأثيراً.. ولكن مواقفي معها قليلة.. وربما مرت بي أو مررت بها سريعاً.

من هؤلاء مثلا: الأديب الكبير ثروت أباظة الذى عاصرته رئيسا لاتحاد الكتاب.. وكان يشرف على صفحة الإبداع فى الأهرام وهو الذى شجعني لنشر مسرحية (أخناتون) على أربع حلقات فى أربعة أسابيع في صفحته عام ١٩٨٧.

وهناك أيضا الأديب الكبير فاروق خورشيد الذى تميز فى دراسات الأدب الشعبي – خاصة السيرة – وكان أيضا رئيسا لاتحاد الكتاب وكنت سكرتيرا عاما للاتحاد.. ودائما كان يناديني بالسندباد.. لأنه كلما سأل عني أكون مسافراً فى ندوة أو مؤتمر خارج أو داخل مصر.

وهناك الشاعر الظريف محمد مصطفى حمام الذى التقيته فى الستينات فى دار القلم حيث كان يطبع بعض أشعاره.. فعرضت عليه أشعري وكتب بخط يده شهادة لي.. وقد أصدرت له ديواناً مختاراً من شعره منذ عدة أعوام.

وكذلك فعل الشاعر محمود غنيم حينما التقيته أيضاً.. وعرضت عليه أشعاري.. وكتب بخط يده شهادته.

وهناك الناقد الدكتور عبد المنعم خفاجي وخفة ظله.. وقدرته على أن يكتب ويتحدث فى أي موضوع.. وله أكثر من ثلاثمائة كتاب.. وكان يؤكد أن الخفاجيين منتشرون فى بقاع الأرض كلها.

وهناك الشاعر (الحلمنتيشي) عبد السلام شهاب وكان يعمل مراجعا فى جريدة الأهرام.. وأذكر له قصيدة بعنوان سهرة مع إبليس جاء فيها:

جاءنى إبليس أمس

لابسا بدلة إنس

والكرافتة (سولكا)

هى من صنع الفرنسي

ثم يحكى أن إبليس أغواه بمصاحبته إلى بار ليشربا مها فاعتذر لأنه لا يملك سيارة فيرد عليه إبليس.

ألف (فورد) و(بويك)

تحت أمرى فى الأجنه

ومعى (مرسيدس)

موديل ستين وسدس

ويتوجهان إلى البار ويشربان حتى السكر..ثم يصف الشاعر هذه الحالة بقوله:

لو ترى سبعا هصورا

لم تزد عن قول (بسِّ)

وهناك الأديب المترجم حسين القباني الذى قضي حياته جالساً على كرسي متحرك.. وكانت له ندوة أسبوعية فى أحد النوادي على النيل أطلقنا عليها (ندوة القباني).

وكان القباني تشجيعا للأدب والأدباء قد أعلن عن مسابقة سنوية لأفضل ديوان.. أو أفضل رواية.. للحصول على (كأس القباني) فتقدمت بديواني الأول (الطريق والقلب الحائر) وفاز بالكأس عام ١٩٨٨.. وأذكر أن الأديب الكبير محمود تيمور مع القباني قد سلماني هذه الجائزة.

أما نجيب محفوظ أديب نوبل العظيم.. فقد التقيته أكثر من مرة.. أذكر منها تلك الزيارة التى قادني ومعي عبد العال الحمامصي الأستاذ محمد سلماوى.. لمنح نجيب محفوظ الرئاسة الشرفية لاتحاد الكتاب.. وكانت هذه الزيارة قبل رحيله بنحو عام تقريباً.

وكان نجيب محفوظ قد ضعف بصره بشكل كبير.. وضعف سمعه أيضاً.. فلما دخلنا عليه.. سأل نجيب محفوظ الأستاذ سلماوى:

– من معك يا محمد.

قال سلماوى:

– معى الأستاذ عبد العال الحمامصي.. نائب رئيس الاتحاد.

فقال نجيب محفوظ على الفور:

– آه.. أليس هذا الذى كتب (للكتاكيت أجنحة)

قال سلماوى:

– نعم يا سيدي.

قال نجيب محفوظ:

– ومن معك أيضا:

قال سلماوى:

– معى أيضا الشاعر أحمد سويلم سكرتير عام الاتحاد

قال نجيب على الفور:

– آه.. الذى كتب مسرحية (أخناتون).

قال سلماوى: نعم هو.

فى الحقيقة أصابتني الدهشة والعجب..

لقد كتب عبد العال الحمامصي مجموعته القصصية (للكتاكيت أجنحة) فى الستينيات من القرن الماضي.

ونشرت مسرحتي (أخناتون) فى أواخر الثمانينيات من القرن الماضي.. فكيف يتذكر نجيب محفوظ لكل منا عمله.

لابد أن نجيب محفوظ يعرف كل أديب بعمل أو أكثر..

لكن العجيب يبدو فى هذا التألق فى ذاكرة هذا الأديب الكبير..

ملاحظة أخرى مهمة..

كان نجيب محفوظ يحرص على الحصول على معاش اتحاد الكتاب الضئيل وكان يقول:

– هذا المعاش على ضآلته يشعرني بالفخر بأني من مؤسسي هذا الاتحاد..

ويذكر لهذا الأديب الكبير أن المجلس الأعلى للثقافة قد اعتاد على إقامة مؤتمر للرواية العربية... فلاحظ نجيب محفوظ أن الشعر ليس له نصيب فى مؤتمرات المجلس.. فأرسل بتوصية مهمة فى أحد المؤتمرات بإقامة مؤتمر للشعر مثل مؤتمر الرواية.

وبالفعل بدأ المجلس يقيم كل عامين مؤتمراً للرواية وآخر للشعر.

هذا أديب مصر العالمي الذى أكد الإبداع العربي بحصوله على جائزة نوبل أرفع جائزة عالمية.

ومن الشخصيات التى التقيتها الفنان التشكيلي الكبير مصطفى حسين والذى برع فى فن الكاريكاتير وأصبحت له مدرسة وتلاميذ.

التقيته فى عام ١٩٨٢ حينما تحمس لرسم سلسلة للأطفال عن ألف ليلة وليلة تنشرها دار الشروق.. وبالفعل رسم خمس حكايات برسوم رائعة.. وكان مقاس الكتاب (٢٥×٥٠) مما جعله يبدع لوحات فنية جميلة.. وقد حصلت هذه السلسلة على جائزة بولونيا فى أدب الطفل وجوائز أخرى.

ثم التقينا مرة أخرى فى سلسلة أخرى بعنوان (يحكى أن) وهى قصص من التراث العربي بصياغة شعرية نشرتها دار نهضة مصر.

وكان مصطفى حسين طويل القامة خفيف الظل.. ينعكس ذلك على أعماله الفنية التى تخصص فيها خاصة فن (البورتريه).. ولم يترك مصطفى قامة أدبية أو فكرية دون أن يرسم لها لوحة تعبر عن هذه الشخصية.. وتشعر المشاهد بأن الفنان تسلل إلى عمق هذه الشخصية وعبر عنها.

من هذه الشخصيات أيضا الشاعر عبد الرحمن الأبنودي والذى تعرفت عليه فى عام ١٩٦٨.. حين زارني فى مكتبة دار القلم.. وكنا نوزع اسطوانة للمطربة نجاة الصغيرة (مسير الشمس من تاني) تأليف الأبنودي.. وكم كان سعيداً حينما استمع إليها معي.. ثم توالت لقاءاتنا فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة.. وكذا فى لجان النصوص فى الإذاعة والتليفزيون.. وكان الأبنودي صاحب رأى صائب فى النصوص المقدمة.. لا يعرف المجاملة وإنما معياره الوحيد هو جودة النص.

أما أمل دنقل.. فنحن ننتمي إلى جيل واحد.. وأتذكر أنني أصدرت ديواني الأول (الطريق والقلب الحائر) عام ١٩٦٧.. وبدأت الأخبار فى الصحف تنوه عنه.. وذات ليلة دخلت استراحة دار الأدباء بشارع القصر العيني ورأيت أمل دنقل يجلس مع أصدقاء له.. ويبدو أنه سأل: من هذا الذى دخل علينا..

فوجدته يبادرني: أنت صاحب ديوان (الطريق والقلب الحائر).. قلت: نعم.

وصارت بيننا علاقة محترمة طوال الحياة.. حتى إنه جاءني ليستشرني فى زواجه بالصديقة عبلة الرويني.. كما جاءتني هى الأخرى لتسألني فى الموضوع نفسه وظللنا أصدقاء.. وكتبت عنه مرثية حين رحل عن عالمنا.

أما الناقد د. عز الدين إسماعيل فقد كتب أول ما كتب عن ديواني الثالث (البحث عن الدائرة المجهولة) الصادر فى أوائل ١٩٧٣ والذى أفلت من قبضة الرقابة بمعجزة.

أهديت الديون للدكتور عز.. فكتب دراسة مستفيضة فى روز اليوسف حيث أشاد بالديوان.. ثم توالت دراساته عن أعمالي الشعرية.. سواء بالمناقشة أو بالكتابة والنشر.

أما د. حسن ظاظا فقد كان يناقش هذا الديوان أيضا فى قصر الحرية بالإسكندرية.. فى فترة عصيبة تتميز بالقلق والتوجس والرقابة الصارمة.. ثم سألني أمام الحضور:

– كيف مرّ هذا الديوان على كلاب الحراسة؟

وتمنيت يومها ألا يكون أحد من الأمن من حاضرا فى هذه الندوة.. وفعلا مر الموقف على خير..

أما الشخصيات العربية والعالمية فهي كثيرة منها عالميا: الكاتب الروسي فاسكو بوبا.. والشاعر الأيرلندي ديزمونت جريدي والشاعر الزنجي تيد جونز.. وغيرهم مما نلتقيهم ونوثق معهم العلاقات الأدبية فى المؤتمرات العالمية.

أما الشخصيات العربية فهي كثيرة منها: عبد الوهاب البياتي – محمد الفيتوري – محمود درويش – سميح القاسم – بلند الحيدري – حسن القرشي – جورج جرداق – نازك الملائكة – فدوي طوقان – وغيرهم كثير.

وربما لا تسعفني الذاكرة لأذكر مزيداً من الأسماء والشخصيات التى مثلت محطات كثيرة فى حياتي.

لكنني أود أم أطمئن القارئ الكريم أنني أدين بالكثير من التقدير لكثير من الشخصيات التى لعبت دوراص فى حياتي الخاصة.. أو فى مسيرتي الإبداعية.. والتى لا تقع تحت الحصر.

وفى النهاية..

لابد أن أذكر تلك الشخصية التى لولا صبرها وتحملها لما حققت شيئا فى حياتي: الست فردوس المعلم.. أمى.

تلك التى غاب ورحل عنها زوجها (أبى) وترك لها أربعة أبناء صغار كنت أكبرهم ولدى تسع سنين.. وصرت حتما عائلهم بعد ذلك.

أبت هذه السيدة – برغم صغر سنها – أن تتزوج وتشرد أبناءها.. كما رفضت أن يلتحق أولادها بمهن أخرى كانت متاحة فى بلدنا (بيلا) وصممت على أن نلتحق جميعاً بالتعليم.

وصبرت.. وعانت الكثير.. وبمساعدة من أخيها – محمد المعلم – حتى حصلت أنا على شهادة الثانوية العامة (١٩٥٩) والتحقت بالعمل فى دار القلم..

وهاأنذا انتقل وتنتقل معى الأسرة إلى القاهرة.. وألحق إخوتي بالمدارس لاستكمال تعليمهم.

كان علىّ أن أقوم بدور العائل لهذه الأسرة.. وأحسب أني وفيت هذه الأم العظيمة حقها من الرعاية بقدر طاقتي ومحبتي.. فرحلت وهى راضية عني وعن إخوتي.

لهذا فهي تستحق التقدير والذكر الطيب بما أعطت وصبرت.. وأضافت إلى شخصيتي ما أعتز به من صفات إنسانية طيبة.

وأخيراً...

فتلك صفحات ولقطات ومواقف وشخصيات عشت معها وعاشت فىّ.. وشكلت جوانب كثيرة من شخصيتي وقيمي ومسيرتي الإبداعية التى أعتز بها ولا تزال مستمرة حتى اليوم عبر ما يربو على مائة عنوان لكتب تشمل الشعر والمسرح الشعري والدراسات الأدبية والأطفال.

ولا أملك أخيراً.. إلا أن أحمد الله الذى وفقني وجعلني فى سلام ورضا مع نفسي فى أي موقع شغلته.. وأي إبداع أصدرته.

الفصل السادس

تجربتي الإبداعية

أعجبني قول أحد القدماء . ولعله أبو إسحاق الصابى . وهو يعرف الشعر فيقول: (الشعر.. ما أعطاك نفسه بعد مماطلة!).

وأحسب أن هذه المقولة تنصرف إلى كل من الطرفين: المبدع والمتلقي.. فالمبدع الحق الصادق لا يأتيه الشعر سهلاً وإنما يأتيه بعد معاناة ومماطلة..

والمتلقي عليه أيضاً أن يتلقى الشعر بحاسته التذوقية.. وفى ذلك أيضاً معاناة ومماطلة.. أدرك إذن أن الشعر . صعب وطويل سلمه . وأنه معركة نضال طويلة بين الشاعر والوجود بما يحمل من ماض ممتد فى أعماقه منذ وجد الإنسان.. وحاضر يمثل نقطة انطلاق مؤكدة.. ومستقبل يفرض على الشاعر رؤية النبوة.

هو إذن تجربة حياة.. وصراع.. وموت.. تجربة نجاح وإخفاق.. وهو إلى جانب ذلك قلعة عظيمة مطلة على جميع أنهار وبحار العالم.. وفيها يمكننا أن نلتقي بتلك الوجوه التى تصارع وتتحدى الزمن.. منذ كتب هوميروس ملحمته الشعرية العظيمة حتى ذلك الجنين المنتظر فى باطن الغد.. والذى ينبئ بالجمال المثالي!.

وقصتي مع الإبداع الشعري لا تخرج عن ساحات ودهاليز هذه القلعة التى قد تبدو . من البعد . قلعة حصينة فولاذية.. بالرغم من أنها مفتحة الأبواب والنوافذ.

ولا أدرى تماماً.. حتى كانت أول طرقة على باب هذه القلعة.. وإن كنت متأكداً من محاولاتي الأولى لهذه المغامرة منذ فتحت عيني على قراءات مكثفة للتراث الشعري العربي الصوفي.. فى تلك الكتب الصفراء القديمة التى كان والدي الشيخ . رحمه الله . يحتفظ بها فى خزانته بعيداً عن عبث الصغار أمثالي.. فكثيراً ما كنت أتسلل إليها فى أثناء غياب أبى عن البيت مشغوفاً بما سطر فى أوراقها.. فأنهل منها ما أستطيع.. حتى إذا ما أحسست بخطاه أسرع بإعادتها والخروج إلى استقباله ناقضاً عقلي وقلبي من تأثيرها حتى لا يفطن إلى (جريمتي).. لكنني اكتشفت أنني كنت أحيط هذا الرجل الطيب بهالة من الهيبة المخيفة التى لم تكن فيه.. ففي أحد الأيام.. فاجأني أبى فى

غرفته مستلقياً على صدري محتضناً ديوان ابن الفارض أسفل وجهي.. وأدمعي تملأ عيني من شدة التأثر بما أقرؤه.. وحين شعرت به فوق رأسي.. قفزت من مكاني.. لكنه نظر إلى فى حنان وحب.. وأدرك كل شئ.. فضمني إلى صدره.. وبدأ يشجعني على القراءة فى الشعر والتراث الشعبي.. بل كان يضمني إلى حلقة الذكر التى كان يعقدها فى البيت ليلة كل أربعاء.. أهتز فيها على أنغام المنظومات الدينية وبردة البوصيري.

وكعادة أبناء الريف.. كانت وسائل الثقافة والترفيه محدودة جداً.. وكان المسجد بالنسبة لي مدرسة ثقافية جامعة إلى جانب المدرسة التى تسقينا العلم.. ومكتبتها التى كنا نلتهم فيها الكتب دائماً.. وأذكر أنني كنت حريصاً على قضاء فترة ما بين صلاتي العصر والمغرب فى المسجد حيث كان (الشيخ عبد الهادي) يتصدر المجلس ليتحدث إلينا فى كل شئ ويجيب عن كل سؤال.. والعجيب أن هذا الرجل لم يكن يملك من حياته إلا شهادتي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) و(الفقر) . على حد قوله . لكنه لعب دوراً مع جيلي فى بلدتنا . بيلا كفر الشيخ . فى غرس قيم الحرية والرأي والحوار.. ومزيد من الثقافة العامة.

وقد كنت أحس دائماً بجمرة الإبداع فى داخلي.. ومن ثم كانت أولى علاقاتي بالكتابة فى صورة رواية طويلة بعنوان (حب فى الظلام) تدور أحداثها فى القرية المصرية وتتصادم فيها القيم والعادات والتقاليد.. ثم جربت القصة القصيرة على قدر سني وخبرتي وطموحي مستمداً مضامينها أيضاً من بيئتي الريفية.. وأيضاً جربت التعبير عن ذاتي فى بعض الخواطر والتأملات فى الحياة.. إلى أن جاء عام ١٩٥٦ وتلقت مصر تهديداً بعد تأميم قناة السويس.. وامتنعت كل دول العالم عن تسليح مصر.. وبدأت الدعوة للتبرع لشراء السلاح للجيش المصري.. وغني عبد الوهاب أيامها أغنية (سلح جيش أوطانك.. وأتبرع لسلاحه) فانهالت التبرعات من أجل المجهود الحربي وإنقاذ مصر وكرامتها ووجدتني فى براءة الوطنية أكتب . بالعامية على غرار أغنية عبد الوهاب متحمساً ومشاركاً هذا الشعور الوطني الفياض.. ثم عرضت ما كتبت من قبيل التجربة على صديقي الأزهري . حسن محرم الحويني . وهو الآن مدرس

بجامعة الأزهر . فوجدته يطالبني بإعادة كتابة هذه المقطوعة بالفصحى.. ربما لعلمه بحبي للغة العربية وآدابها.

إنني على يقين بأن الصديق هذا قد أدرك أن شيئاً بداخلي ينبغي أن يتفجر.. ولابد أنه أحس يومها هذا الاشتعال الكامن الذى لم أنتبه إليه.. فاستفزه داخلي.. وحركه من ركوده وكمونه!.

كان الشعر . كما درسناه فى قاعات الدرس . هو الكلام الموزون المقفى.. وكان علىَ . كما فعل خلف الأحمر مع أبى نواس . أن أحفظ ألف بيت من الشعر.. ثم أنسى ما حفظت حتى أكون شاعراً مجيداً.. أو كان علىّ أن أفعل مثلماً فعل كعب بن زهير وهو يعاند أباه ويصر على قول الشعر حتى أتقنه.. وكان علىَ كذلك أن أنهل من تراث الشعر على مدي التاريخ الشعري بفهم ووعي واستيعاب.. وحتى أحدث مدارسه: المهجر وأبوللو والديوان.

وأعجبني كثيراً فى قراءاتي الأولي: صعلكة عروة بن الورد.. وبطولة عنترة.. وشموخ امرئ القيس برغم عمره القصير.. وتجديد أبى العتاهية. ورومياات أبى فراس.. وفلسفة أبى العلاء.. ومقدرة ابن الرومي.. وتفرد المتنبي.. وتمرد أبى نواس.. ودراما عمر بن أبى ربيعة.. وشعبية البهاء زهير.. وتحدى البارودي.. ومعاصرة شوقي وحافظ.. ورومانسية ناجي وعلى محمود طه وجماعة أبوللو.. وتأملات مدرسة المهجر.. وتجديد مدرسة الديوان.

سكن كل هذا فى وجداني طوال سنوات ثلاث (١٩٥٦-١٩٥٩) وحاكيت شيئاً منه فى قصائدي الأولي وأنا طالب فى المرحلة الثانوية.. تغمرني البراءة والثورة والدهشة والحماسة الشفافة التى أستمدها . بلا إرادة . من الإعلام السائد آنذاك.. ومما كنت أتلقاه فى الفصل الدراسي من الشعور القومي الخالص من أي شوائب أو أفكار مضادة.. فكان شعري انعكاساً تلقائياً لا يحيد إلى دروب أرحب من هذا.

والحقيقة أنني ودعت أي لون آخر إبداعي سوى الشعر.. وكأني وجدت ذاتي فيه.. فقررت أن أخلص له دون غيره.

وأرحل فى منتصف عام ١٩٥٩ إلى القاهرة حاملاً إتمام الثانوية العامة.. وستة عشر عاماً لم أبرح خلالها هذا الريف التقليدي!

ويصل الشاب الريفي إلى القاهرة.. تلك المدينة الصاخبة التى أقول فيها:

مدينتي..
ليس لها وجه ولا عينان
ميلاها مجهول
تصبغ شعر رأسها بالقهوة السوداء
سدَّى تمد فى نفوسنا الأوهام
مدينة بلا قناع
من يا ترى يمزق القناع

(قصيدة الزمن الأخير من ديوان: الطريق والقلب الحائر ١٩٦٧)

إنها إذن مدينة انطفأت فيها براءة الطفولة.. وتفككت مفاصلها.. وبدت تجاعيدها.. وامتلأت بالمفارقات والمتناقضات.

ووجدت نفسي فى قلب هذه المدينة.. لألتحق بعمل أعول به أسرة مكونة من أم فقدت زوجها من سنوات وثلاثة إخوة صغار.

ترى.. أكانت تجربة جديدة.. أم هى إضافة للوجدان الشعري؟

وما الذى يمكن أن تمنحه تلك المدينة الموحشة المخيفة لهذا الوافد البسيط الرقيق.. الذى حمل فى قلبه الإيمان والبراءة معاً.. وماذا عن الشعر والشعراء.. والإعلام.. والسياسة.. ماذا عن كل هذا ؟

لقد أدركت منذ الوهلة الأولي أن المدينة تقتحمني.. تتسلل داخل شراييني.. تتوحد بخلاياي.. وتصارع مكان الشعر.. على إذن أن أقاومها واحتفظ بصفاء الوجدان.. وإذا لم أستطيع المقاومة فعلي مهادنتها.. أو التواصل معها بلا جراح.

جذبتي الساحة بما فيها من إيقاع سريع يخالف تماماً إيقاع الريف الذى أحمله داخلي.

وكانت الساحة الشعرية . وهى ما تعنيني الآن . فى بداية الستينات ذات ملامح محددة.. فهي ساحة فرضت عليها حتمية التغيير من مجتمع يعاني بقايا الرأسمالية والإقطاع والرجعية والصراعات على السلطة.. إلى مجتمع وجد فى النظام الاشتراكي خلاص المرحلة.. وطبيعي أن يجد هذا التغيير من يناصره من شباب مصر الذى كان يري فى عبد الناصر قدره المنتظر.. وطبيعي أيضاً أن يجد هذا التغيير من يقاومه من هؤلاء الذين ينتمون إلى الماضي..

هى إذن مرحلة انعكست ظلالها على كل شئ فى حياتنا.. اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وفنياً وأدبياً.. وما يهمنا هنا ما انعكس منها على الشعر.

فمنذ سنوات عشر تقريباً على تلك المرحلة بدأت مدرسة الشعر الجديد تعلن تمردها على تقليدية القصيدة.. ورتابتها . وإن كانت تحترم الحوار مع التقليديين برغم إعلانهم خصومتهم لهذا التطور الجديد..

وكان صلاح عبد الصبور رائد هذه المدرسة فى مصر.. والسياب ونازك الملائكة والبياتي فى العراق.. وبالرغم من المقاومة الضارية فى جميع وسائل الإعلام فإن إصرار أبناء هذه المدرسة كان أقوى وأشد قدرة على التصدي والصمود.. مسلحين بالثقافة المنوعة التى تمزج التراث البعيد بمعاصرة الحديث.. والثقافة العربية بالثقافة الأجنبية.

وبدأت القصيدة الحديثة تأخذ مسارها فى الساحة بمفرداتها الخاصة.. وتشكيلها الجديد وإضافاتها وآفاقها المتعددة بين الغنائية والدرامية.. وبين الرومانسية والواقعية.. وبين إضافاتها المسرحية على أيدي الشرقاوي وعبد الصبور.. مؤكدة ثراءها.. وعدم جمودها فى قوالب بعينها.

أين أنا إذن فى هذا المعترك الصاخب؟

إما أن أكون أو لا أكون!

أدركت بعد استيعاب ظلال هذه الساحة الجديدة.. أن ما سبق وكتبته طوال السنوات السابقة . وما زهوت به كثيراً . لم يعد يصلح لهذه الساحة الأكثر حركة وقلقاً.. ووجدت

نفسي فى قلب المدرسة الجديدة أنسج إبداعاتي متكئاً على هذا الزاد المتميز الذى حملته من التراث.. وما أقبلت عليه من الثقافة الحديثة.. وساعدني على ذلك كثيراً عملي فى دار النشر (دار القلم) حيث أتاح لي هذا مزيداً من التعرف على الساحة من خلال القراءة واللقاءات مع الشعراء الذين كنت أسمع بهم فى مرحلة الدراسة وأتمني لقاءهم.

كان علىّ أن أعيد حساباتي فى كل شئ.. وأن أعيد ما قرأت . سابقاً . لكن برؤية أخرى تماماً.. وأضيف إليه ما استحدث فى قلب الساحة.. ثم بعد ذلك أبداً فى إفراغ رؤيتي الخاصة.

وكان سباقاً مع الزمن.. واصلت فيه دراستي الجامعية فى(كلية التجارة جامعة الأزهر) فى أثناء عملي اليومي الذى أحببته كثيراً.. لكن الشعر كان يحفر لنفسه مساره الخاص الذى لا يطغي عليه أي مسار آخر:

الكلمات لا تبيد لا تموت
. الموعظات.. والوصايا.. القنوت .
الشعراء يأخذون الدفء من خلودها
والقوت..
ويشعلون فى ظلام صمتهم (قنديل)
ويذرعون.. يذرعون ألف ميل..
الصيف والخريف والشتاء والربيع
الحب والفراق والمنون والحياة
مراسم يُعوزها التنسيق والأناة!

(هوامش يوميات قديمة . ديوان الطريق والقلب الحائر)

التحمت بالساحة الجديدة لعلني أحظي فيها بمكان لخطواتي.. فوضعت ما كتبت سابقاً فى (مظروف كبير) خاص وكتبت عليه (ما قبل التاريخ) ثم انطلقت من جديد مسلحاً بإصراري على خوض هذا المعترك.

وفى أوائل عام ١٩٦٤ . بعد خمس سنوات من التجريب . استرحت إلى قصيدة رأيتها تصلح أن تقدمني للقارئ.. وعلى الفور أرسلتها إلى جريدة (الحرية) فى بيروت باسم رئيس تحريرها وسعدت بها منشورة على صفحاتها.

إذن يمكن أن تكون هذه الجريدة (غير المصرية) جواز مروري إلى الساحة المصرية. وبالفعل رحب بأشعاري د. عبد القادر القط حينما كان رئيساً لتحرير مجلة الشعر القاهرية لتبدأ رحلتي مع النشر بلا انقطاع.

وتناثر حولي دواوين الشعر الجديد.. كل له مذاقه وتجربته وإضافته.. وأنا أكتب وأنشر قصائد متفرقة هنا وهناك داخل وخارج مصر.. ويشير على أصدقائي أن أنشر ديواني الأول.

لم يكن ميسوراً . وقتذاك . أن ينشر شاعر جديد ديوانه الأول . كما هو الحال اليوم . فقد كان النشر له معايير ولجان أكثر قسوة.. لكنني أقدمت على التجربة.. وراقت لي.. ووجدتها فرصة اختبار حقيقية لقدرتي الإبداعية.. فجمعت عدداً من القصائد ودفعتها إلى (دار الكاتب العربي) وكانت داراً قومية.. وبعد فترة روتينية طويلة امتدت لأكثر من ستة أشهر تمت الموافقة على الديوان ليصدر بعد ذلك بنحو سنة فى أعقاب نكسة ١٩٦٧ (سبتمبر ١٩٦٧).

لكنني لم أكتف بصدور ديواني الأول هكذا.. وإنما أردت أن أعرف تماماً أين موقعي على خريطة الشعراء.. ولهذا دعوت الأستاذين الكبيرين.. الدكتور عبد القادر القط والشاعر صلاح عبد الصبور ليناقشاً الديوان فى ندوة إذاعية متخصصة فى البرنامج الثاني.. وكانت البداية الحقيقية تلك الكلمات والتعليقات التى لا تزال تتردد فى وجداني بصوت هذين الرائدين والتى دفعتني بقوة إلى شق مساري الخاص بعيداً عن الانتماء أو التعليق بالجماعات السائدة أو بسلطة ثقافية أو إعلامية معينة.. لإيماني أن الكلمة وحدها هى السلطة الحقيقية التى يجب أن يتعلق بها الشاعر.. وهى الحكم العدل لإبداعه!

كانت المضامين السائدة آنذاك تدور حول محاور الذات والحب والتعاطف والخلاص والتمرد والتنبؤ بالغد.. وكنا جيلاً نشكل منظومة كاملة من شعراء قرءوا التراث قراءة عميقة فاتخذوه تكئة فنية ينطلق منها الشاعر إلى العصر ودراما الإنسان مع الوجود حيث يثور ويتمرد.. ويتطلع إلى الغد..

إن علاقة الشاعر بالتراث علاقة وثيقة حتى لو أنكرها.. فالشاعر يحمل فى داخله . رغماً عنه . جينات الشعراء والأجيال السابقة عليه منذ بدأ الشعر العربي حتى زمن الشاعر.. لكن يبدو أن التمرد على التراث يصبح أحياناً موجة من موجات التمرد الدونكيشوتي.. مسايرة لمدارس الثورات وإنكار الماضي بحجة السلفية وغيرها.

وقد غاب عن وجدان هؤلاء الموهومين.. أن تراثنا.. كأي تراث حضاري . يتضمن قيما إيجابية وأخرى سالبة.. ونظرة الشاعر ومشروعه الإبداعي هما اللذان يحددان موقفه من هذا وذاك.

ومن ثم كانت نظرتي للتراث العربي أنه جزء من التراث الإنساني بعامة.. وأنني لابد أن أعيد النظر إليه فى ضوء هذه الفكرة.. فكرة الانتقاء.. فإذا تعاملت معه فينبغي أن أستعيد منه . فى شعري . ما يستطيع أن يحمل دلالات العصر.. وإلا أصبت شعري بالتخلف.

وأحسب أن التجربة الشعرية هى التى تحدد احتياج الشاعر إلى استخدام التراث أم لا.. فليست هناك قاعدة فى ذلك.. بدأت إذن رحلتي الجديدة مع الكشف والارتياد فى أقاليم الليل والنهار والتراث والواقع والمستقبل.. وكنت أحرص كل يوم على اكتساب خبرة جديدة وتجارب أكثر تأثيراً تتسلل إلى داخلي.. وتؤكد كل مقومات الإبداع.

وبجاذبية المسئولية ومذاقها العذب الجميل.. وضعت ما أكتب تحت الأضواء الساطعة للنقد الذاتي.. قبل أن أدفعه إلى النشر . وكثيراً وحتى يومنا هذا.. ما أتحول إلى ناقد مستفز مسلح بكل أسلحة الدمار والصراحة والمواجهة الصارمة . بعيداً عن الرحمة والمصانعة . فأسقط قصيدة من حسابي لأنها . فى تصوري . لا تمثل إضافة إلى ديوان جديد.. بالرغم من نشرها فى مجلة أو صحيفة.. أو أجدني أعيد النظر فى قصيدة كتبتها

فأضيف أو أحذف أو أنقح ولا أري فى ذلك عيباً فأنا أصلح من نفسي وذاتي.. باعتبار أن القصيدة وذاتي كل واحد لا يتجزأ.. وأن التجربة الشعرية هى تجربة حياة وهى تمر بمراحل كثيرة ذات منحنيات ومنعطفات ودروب لتنتهي أخيراً إلى كائن حي يسجل فوق الورق.

والتجربة الشعرية عندي عميقة الجذور.. تبدأ فى دهاليز الزمان الممتد داخلي منذ الطفولة حتى لحظة كتابة القصيدة.. بل تمتد بأطراف مختلفة فى ماضي الإنسانية القديم.. وهى تعيش داخلي فى ركن مجهول.. وما أكثر أركان ذاتي المجهولة.. حتى إذا لمست هذه (الخلية الأولي) لحظة تفجر معاصرة سرعان ما تتحول هذه (الخلية) إلى محور (مغناطيسي) داخلي ينجذب إليه كل ما يحمل طرفاً من خصائص هذا المحور دون غيره.. وتظل عمليات الجذب والطرد.. والقوة والضعف . حتى يكتمل المحور تماماً ويتشبع بهذه المفردات المنجذبة.. ولحظتها فقط أحس بقوة أشواك هذه التجربة داخلي.. وأن علىّ أن (أتخلص) منها على الورق.

وأنا على يقين بأن التعجل فى إفراغ التجربة قد يأتي بأثر عكسي تماماً.. ولهذا فمرحلة اليقين عندي لا تأتي بمجرد الإلحاح الأول.. بل أجدني . لهذا . أهرب وأهرب خوفاً من أن يكون ما أحسه (حملاً كاذباً) وأظل هارباً حتى أصل إلى أقرب نقطة من الرؤية الصادقة للتجربة.. وساعتها لا أملك إلا الكتابة.

إني مع الشعر أرضي احتراقي
هو السيد المتفضل
سوط بقبضته
ونعيم بساحته
وأنا دائماً رهن نظرته
وهو يمنحني ما يراه من الحجر
حباً.. وهماً..ومملكة.. وجحيماً

(اللهيب . ديوان شظايا.. ١٩٩٣)

وفى يقيني أيضاً أن متعتي الحقيقية هى فى ذلك العذاب الجميل الذى أعانيه فى داخلي حتى تأتي لحظة المخاض.. وهنا أكتب تجربتي فى جلسة واحدة.. ثم أترك ما كتبت قليلاً حتى أستعيد طبيعتي . قبل القصيدة . لأتحول إلى قارئ أو متذوق أو ناقد.. فأقبل على القصيدة مرة ومرة أصلح منها.

لقد قصدت هنا أن أقترب من مراحل التجربة الشعرية.. لكنني أدرك تماماً أن بها عوامل أخرى كثيرة تتداخل وتتشابك وتتنافر حتى تتم التجربة.. يعجز أي مبدع أن يقبض عليها أو يصفها أو يحدد ملامحها تماماً.. أو حتى يعبر عنها تعبيراً نهائياً.. وبالرغم من هذا فأنا أومن . كما يقول ناظم حكمت . أن (القصيدة الجيدة هى التى لم تكتب بعد) وإلا توقف الإنسان عن الإبداع ما دام كتب أجود ما عنده!

دخلت كهذا ساحة الشعر . والنشر . من أوسع أبوابها.. وطرقت تجارب كثيرة من التشكيل الشعري والتجارب والتجريب بكل آفاقه.. وما أصدرته من دواوين إنما وقع تحت اختيار دقيق من بين عدد كبير من القصائد.. أردت أو رضيت أن أقدم نفسي من خلال ما نشرته فى هذه الدواوين فقط . فى حينها فقط . وحاولت فى كل ديوان أن يعبر عن تجارب متقاربة.. وليس معني ذلك أنها ترتبط بآنية الزمن بالضرورة.. وإنما هى تجارب يضمها غلاف واحد وتبوح بما عندي ساعة إصدار الديوان.

ففي ديواني الأول وديواني الثاني.. كنت أتحسس خطاي فوق هذه الأرض الوعرة الملتهبة.. وكانت أمامي تجارب الرواد الكبار.. وغيرهم من وراء العالم الذين تصل إلينا أعمالهم كل يوم.

وكان لا مفر من أن أقع . فى البداية . تحت تأثير ما أقرأ.. وأتذوق.. وأحاول الانفلات منه حتى أتخذ لنفسي مساراً خاصاً تجلي فى ديواني الثالث (البحث عن الدائرة المجهولة) حين أقول:

أبحث عن دائرة
تتعري فيها كل الأشياء
أبحث عن دائرة تصدق فيها الكذبة

لا تخفي عن أعيننا
أبحث عن دائرة أكسر فيها تمثال الضحكة
وأراه لا يتجوف فى داخله الحزن

(قصيدة البحث عن الدائرة المجهولة)

لعلها دائرة عارية من الظل والضوء معاً.. تتسع للكلمات المسموعة والمنظورة والمكنونة فى القلب.. إنها بلا شك دائرة البحث الذى لا يتوقف.

لقد كان هذا الديوان الذى صدر فى أوائل عام ١٩٧٣ حصيلة تجربة طويلة قاسية من الإحباط والتحمل والتوجس والتوقع الوهمي الذى عاشه المجتمع العربي فى هذه الفترة التى سميت (باللا سلم واللا حرب) والتى انعكست بلا شك فى أعمال جيلنا كله.. وكان معظمه مجنداً فى القوات المسلحة منذ سنوات سابقة فى انتظار الخلاص.

وكانت رؤيتي للخلاص تتكئ مقومات عديدة.. أولها على الإطلاق الاعتماد على الذات والتحدي لهذا المصير الذى اقتحم الساحة العربية فأصابها فى مقتل وكأننا نحيا عصر الموت..

ها نحن الفتية تلقي عن أنفسنا رؤيا الأمس
لا تعنينا أن تصدق أو تكذب
فلقد أمست رؤيانا شوقاً محموماً ووصايا عشر
أمست قوتاً
سلبته أمس رءوس النمل الأسود
لن نتحول عن دنيا الإنسان
إذ نتباري: ماذا يفترق الحلم عن الرؤية
لكنا الفتية من عمر واحد
نحمل فى كفينا الموت
نتقاسم أدوار الزحف المحموم
حتى تتحقق رؤيا لا تكذب

(عن الأوجاع والنمل الأسود.. ديوان: البحث عن الدائرة المجهولة ١٩٧٣)

وتحققت الرؤيا دون أن تكذب حين جاءت حرب أكتوبر (١٩٧٣) وكنت واحداً من المشاركين قيها.. وتهطل علينا آثارها . الإيجابية والسلبية . وتتعدد وتتفرد الرؤى لهذا الحدث الكبير.. ويقع المبدعون فى مأزق شديد.. فما حدث كان عظيماً بكل المقاييس لكنه ليس نهاية العظمة وقمة الخلاص.. وما جناه الإعلام فى حق هذا الحدث من مبالغات أظهرته بصورة غير واقعية.

ماذا إذن يفعل المبدعون ؟

إن هم صدقوا مع أنفسهم خرج إبداعهم أقل من الصورة الإعلامية التى اقتحمت وجدان المواطن المصري.. وإنهم واكبوا ركب الإعلام.. أصبحوا مبدعين إعلاميين وشاركوا فى جريمة المبالغة.

إنه إذن مأزق شديد دفع المبدعين إلى الصراخ والبحث عن حل هذه المعادلة الصعبة . خاصة بعد اتفاقية كامب ديفيد . فلجأ المبدع إلى الرمز والتراث والتشكيل الشعري الذى يثري التجربة ويبعدها عن الآنية والمباشرة ويجعلها ممتدة فى الزمان القادم.

وكان ديواني: الليل وذاكرة الأوراق (١٩٧٧) انعكاساً حقيقياً لهذا القلق الإبداعي.. وفيه أتساءل:

من سيقول الحقيقة؟
قد تجيئين من عالم المستحيل
تفيقين..
قد..
قد تجيئين من عالم المستحيل
(قصيدة أبجدية الحب والألم)

أو أقول فى موضوع أخر:

أستدير إليك لأعترف الآن
أني منذ البداية

أني حتى النهاية
أني ذاكرة تتوزع..
قيل.. وقيل.. وذاكرتي تتوزع
أعترف الآن أني يخطئ ظني
أني قامرت باسمك..
أختار هذا العناء..
أكفر عن خطوتي الشقية
عن نهرنا الحجري
وعن.. وعن..

(قصيدة الليل وذاكرة الأوراق)

وفى هذا الديوان طرقت باب الدراما الشعرية . على مستوي القصيدة . بعد أن طرقتها من قبل على مستوى المسرحية فى عملي الأول (اخناتون).

ومن خلال تجربتي الدرامية.. أستطيع أن أؤكد فروقاً عميقة بين دراما القصيدة.. ودراما العمل المسرحي المركب.. فليس كل من يتفوق فى دراما القصيدة يمكنه أن يكتب دراما المسرحية.. فهما وإن اتفقا فى التسمية يختلفان فى كثير من الملامح.

وأحسب أن دراما القصيدة لا تقوم فقط على رمز أو أسطورة أو حدث تاريخي قديم يحاول المبدع إعادة طرحه من جديد.. وإنما هى بالتأكيد (فعل) و(رد فعل) بين مكونات القصيدة بأسرها.. بين المعجم الشعري من خلال مفرداته وألفاظه وصيغه الشعرية.. بين إيقاعات الموسيقي الشعرية الظاهرة والداخلية.. حتى بين علامات النبر والتوقف والتعجب.. بين تداعي الأفكار خلال التوتر داخل القصيدة.. بين الانتقال والانطلاق والعودة إلى مضمون العمل.. بين شدة وارتخاء الحس الشعري.. بين عنوان القصيدة وجسمها.. أنها إذن صراعات لا تنتهي بين مقومات القصيدة الإيجابية والسلبية نشعر فيها بهذه الدراما عالية النبرة.

بهذا الفهم الخاص والعلمي للدراما.. حاولت أعمق تجربتي المسرحية فكتبت ثلاثة أعمال مسرحية هى: اخناتون . شهريار . الفارس . وكما نلاحظ فهي تقدم (نماذج) ورؤى وليست شخصيات بعينها والإ فلنقرأ التاريخ فهو أصدق من كل شئ.

لقد حاولت فى كل عمل مسرحي أن أعالج أفكاراً عصرية تماماً.. ففي اخناتون عالجت موضوع عدالة الحاكم.. وقابله شهريار ليعالج موضوع الظلم الاجتماعي السياسي.. أما الفارس فهي تعالج قضية الإعلام وقدرته على تزييف الواقع.

واعترف أن هذه المسرحيات الثلاث حاولت فيها أن أستخدم طاقات الإيقاع الشعري بلا حدود.. كما أنني حاولت أيضاً أن أستخدم طاقات الدراما بما تتجه لي من حرية الحركة والدينامية المتوترة.

وفى عام ١٩٨٠ أصدرت ديواني الخامس (الخروج من النهر) حاولت أن أؤكد فيه قدرة الإنسان عن تجاوز الألم وقدرته على الحياة فى ظل حضارته وواقعه وتحديه لمصيره.. وفيه أقول:

إنني الآن أزحف للنهر
فى خطواتي نزوة العربي القديم
يفجر فى الصحراء الينابيع
أخرج للنهر..
يرتسم الرمل فى شفتي
وأمتص ملحي..
ألثم أرضيَ
ألصق وجهي بكفي
أحمل موتي للنهر.. أنظر مجراه
كيف توقف.. أخطأنا وانحرف؟!

(قصيدة: الخروج إلى النهر)

وتتوالي بعد ذلك دواوين: السفر والأوسمة (١٩٨٥) . العطش الأكبر (١٩٨٦) وفى هذا الديوان أنظر إلى البحر وإن كنت لا أعيش على شاطئه وأفسر طلاسمه وأمزج ذلك بمصير إنسان العصر فأخاطبه بقولي:

إنني جمرةُ أستعر
لو تحسست جلدي.. توقّدت
لو تلمست خفق ضلوعي.. تفجرت
لو تسللت بين خيوط دمي
لتغير لونك
وانفرطت ذبذبات مياهك
وانكسرت فى سواحلك الراسيات العنيدة

(قصيدة: الجنون والبحر)

والبحر هنا تتعدد رؤيتي له.. فهو ليس ماء مالحاً وإنما هم مكمن الأسرار والأساطير.. وهو يغريني على الغوص فيه واكتشاف مجاهيله.. وأري أنه بالنسبة لي وهج يشدني ويجذبني جذباً:

يسكنني وهج
لا أعرف إن كان بقلبي
أو بين شرايين دمي
لا أدري علوياً.. أم شيطانياً
مقذوفاً فى أعماق من شمسي
أم آت من جمر الأرض..
يسكنني.. أتبعه بين خلاياي

(بعيداً عن الحلم)

أو أراني لا أفقد طموحي ورؤيتي للغد.. وأملي فى كل جميل:

والبحر..

وسواحله العشر
والمد القاسي.. والجزر
سوف يعود النجم الغائب للفلك الدوار
ويعود سوارك من جوف الماء
ويعود الخاتم للإصبع
والطفل الشارد فى تيه الصحراء
سوف تعودين عيوناً.. وجنوناً
ولهيباً ودوار
ويعود شراعك يحمل لي من مدن الحلم
عطوراً.. وبخوراً.. وتمائم
وقدوراً من أسرار
وتضيع أكاذيب العرافين!

ثم يأتي ديوان (الشوق فى مدائن العشق) ١٩٨٧ والذى حصلت به على جائزة الدولة التشجيعية فى الشعر.. وفى هذا الديوان رؤية صوفية عصرية خاصة.

ثم جمعت دواويني الثمانية الأول (السابقة) فى مجلد واحد عام ١٩٩٢.

ثم أصدرت ديواني (قراءة فى كتاب الليل) عام ١٩٨٩.. ثم انتقلت نقلة شكلية فى ديوان (شظايا) ١٩٩٣ حيث يضم الديوان مجموعة من القصائد القصيرة.. وأحسب أن كتابة القصيدة القصيرة لا يقدر عليها سوى شاعر تمرس وباح كثيراً واكتسب خبرة الشعر.. وله تاريخ فى مجال الإبداع بحيث يهيئ له كل هذا التقاط الفكرة والتعبير عنها دفعة واحدة..

أربعة كنا على زوايا مستطيل
وحينما تقابلت خيوطناً
أمسكها خامسنا فى الوسط المستحيل
هاجمنا اللصوص فى أحلامنا

زاحمنا الليل..
فأطبقنا الزوايا القائمة
صرنا مثلثين متطبقين
من يومها ونحن فى صراع
من يفوز بالزوايا
لأن كل زاوية..
تكفي لواحد.. لا اثنين!

(قصيدة الزوايا)

وكما نلاحظ حاولت فى قصائدي فى هذا الديوان أن أكثف رؤيتي ولغتي وصوري بل أكثف القصيدة بأسرها.

وأحسب أن القصيدة الطويلة تتطلب أن تجود علينا الآلهة بالبداية وعلينا أن نكملها باستدعاءات اللغة والصور وتداعي الأفكار.. أما القصيدة القصيرة فهي دفقة أو طلقة واحدة أو نفس واحد.. أو شهقة متفردة.. وغالباً ما ترتسم كاملاً فى وجداني فأفرغها على الورق فى ثوان معدودة.

ثم يجئ ديواني: الزمان العصي (١٩٩٥) . وديواني: الرحيل إلى المدن الساهرة (١٩٩٧) وبهما شئ من الهم العام القومي.

ثم أصدرت ديواني (لزوميات) فى عام ١٩٩٧ يتضمن ستاً وثلاثين لزومية وهى تجربة باطنية عصرية.. أعزف من خلالها على أوتار القلب والكون والإنسانية.. وربما اختلفت كثيراً عن تجارب الصوفية الشعرية قديماً وحديثاً.. وسيجد القارئ فيها ما يشبعه وما يتعاطف معه!.

وهى قصائد متشابهة فى البناء الفني ومن ناحية الطول.. وتحمل عناوين الحالات النفسية المختلفة والأحوال الوجدانية مسبوقة بكلمة (لزومية).

فى بعده قربي
فى قربه برء من الكون

فى لومه التكفير عن ذنبي
ماذا عساى أودمن بذل

(بداية قصيدة: لزومية البوح)

ثم أصدرت ديواني (جناحان إلى الجوزاء) عام ٢٠٠٠ وهو ديوان يشمل أكثر من ستين قصيدة قصيرة ولا يوجد به عناوين للقصائد ويستطيع القارئ يستبطن المعني والمذاق كلما قرأ قصيدة جديدة وهى جماع النفس والعقل والقلب والواقع والحلم والماضي والحاضر.. والنور والظلمة.. بين دفتي ديوان:

مزهواً قال:
من يمتلك الشوق رآني
قلت حسيراً:
من يألم ألمي
أسكنه دمي

(قصيدة رقم ٣٦)

. أسرج للشوق جناحيك
لكن..
لا تنسي أنك طمي طائر
إن هطل غمام الليل عليك
تقاطرت على أرضك ماء أسود

(قصيدة رقم ٦٤)

وهذا الديوان . فى ظني . ينتمي إلى قصائد الومضة أو الدفقة المكثفة التى تنطوي على عمق ورمز وإضافة وجدانية لدى المتذوق.

وفى عام ٢٠٠٠ أصدرت ديوان {رعشة فى الأفق} وهو ديوان أفتتح به الألفية الثالثة مجسداً فيه حيرة الإنسان فى مواجهة الواقع والمستقبل.. وفى مقلتيه غبار القرن الماضي.. وفى وجدانه رعشة الإقدام إلى قرن جديد.

. قف والتفت الآن

أطلق ساقيك إلى ما قبل صعود

التل المنهارْ

أنزل عن وجهك أصباغ الزمن

ولا تطمع فى مملكة النارْ

واجعل بينكما أدغالاً.. وقفاراً.. وبحارْ

عدْ.. حيث صباحاً ودعت ظلال الأشجار

واجعل سيفك يأنف ثانيةً غمده

فلعل الدنيا تقبل منك العودة

لعل الدنيا تقبل منك العودة

[مملكة النار والأشجار]

ثم أصدرت ديوان {عرس النار} فى عام ٢٠٠٥ وكان الواقع قد بدأ ينفلت ويضيع من أيدينا.. ويتشظى فوق لهيب الحلم المستحيل:

فالمعنى.. ما عاد يدل على معنى

والمبنى..

سوَّىَ بالأرض.. فلا مبنى

واللغة احتال عليها الأفاقون

وساقوها أمةً لا تملك حرية

أن تتجمل فى مرآة النسوة

والحاكم من يحكم بالقهر..

والقاضى من يقضى بالقتل

والشرطة تسلب قوت الفقراء

والبيت بلا أبواب

[عرس النار]

ويبدو أن حرية التعبير قد احتالت إلى حرية القول.. وأحسن المبدعون أنهم يقولون ما يريدون.. والسلطة تفعل ما تريد.. ومن ثم همّش المثقف والمبدع وأبعد عن الساحة تماما.. فأحس بالغياب والغربة والضياع.

وهذا ما جسدته فى ديواني {قراءة فى أوراق الغياب} ٢٠٠٦ ابتداء من التسلط على الكلمة وانتهاء بالتسلط على الوطن.

وفى عام ٢٠٠٨ واصلت رؤيتي فى ديواني **{الدوائر}** والذى تراوحت قصائده بين الحس الذاتي والحس الجماعي فى دوائر ضيقة تمثل الأغلال والقضبان والألم العميق.

أفيقي يا ريح الزمن الساخط
وانصرفي..
مدى قوسك نحو البشر
المغموسين بحِمض الزيف
لا للشعراء المهمومين بأشواق البشر..
يشدّون حبال الفجر على أوتار الجمر
أفيقي يا ريح الزمن
فلا شئ هنا أبقي من قلب
يصدح فوق الأوجاع..
يتطهر بالبوح.. وجمر الإيقاع
[عن أوجاع الشعراء]

وكان ديواني {الوجوه والمرايا}٢٠١٠ صورة للزيف والأقنعة فوق الوجوه.. وحاولت فى هذا الديوان الاقتراب من الملحمة الشعرية.

وأخيرا فى عام ٢٠١١ أصدرت ديوان **{تراتيل الغضب}** منبثقا من ثورة ٢٥ يناير وقد حرصت على وضع بعض القصائد التى كتبتها قبل الثورة.. تنفجر بالغيظ والغضب ورفض الواقع.. إلى جانب ما كتبته أيام الثورة وألقيته مرارا من فوق منصات ميدان التحرير:

الناس إذا جاعوا غضبوا
وإذا غضبوا.. ثاروا
وإذا ثاروا.. لعنوا
وإذا لعنوا.. سلُّوا سيف الغدر
وإذا غدروا.. لا يوقفهم مدٌ أو جزر

ولأن التجربة الإبداعية هنا ينبغي أن تشمل ألوان الإبداع المختلفة لي.. فقد تناولت الشعر والمسرح الشعري للكبار.. غير أن هناك جانباً مهماً من إبداعي هو جانب

الدراسات أو الرؤى الأدبية.. وأحسب أنني عاشق للتراث والشعر معاً وأرى أنهما يتعانقان فى كثير من الدروب بحيث لا نستطيع أن تفصل بينهما.. وتجربتي فى الدراسات أو الرؤى جاءت نتيجة قراءات المتعمقة التى اكتشف عن طريقها مناطق كثيرة مختفية تستحق أن يسلط عليها الضوء برؤية معاصرة.

ومن ثم كانت هذه الدراسات أو الرؤى بمثابة قراءة بصوت عال مرة أخرى.. بحيث يتلقاها قارئي.. فيتعرف على نظرتي المعاصرة فى إعادة القراءة.. لأنها فى ظني قراءة اكتشاف وارتياد لمجاهيل صفحات التراث..

فعلت ذلك فى عدة دراسات ورؤى من أهمها:

. **أطفالنا فى عيون الشعراء**.. حيث أعدت اكتشاف الشعر المكتوب خصيصاً للأطفال منذ الحضارات القديمة حتى اليوم.. وهى رحلة طويلة لكنها سريعة الإيقاع تقدم المفاتيح والمفاهيم والومضات المضيئة خلال هذه الرؤية التاريخية الفنية.

ـ **محمد الهراوي شاعر الأطفال** تحقيق ودراسة.. حيث حاولت فى هذه الدراسة أن أنصف هذا الرجل الذى رحل فى عام ١٩٣٩ تاريخاً خمسة وعشرين ديواناً صغيراً لأطفالنا.. وهى كتب متناثرة استطعت بحمد الله الحصول عليها وإعادة نشرها وتحقيقها فقد كان إخلاصه لشعر الأطفال متفانياً.

. **عظماء أغفلهم التاريخ**.. ولعل القارئ معى فى أن كثيراً من عباقرة العرب قد نالهم الظلم والإهمال لمجرد أن غيرهم كانت كتبهم أو آثارهم متاحة لنا.. ومن ثم قدمت فى هذه الدراسة عدداً كبيراً من الشخصيات التى أضافت إلى تراثنا العربي الكثير ولم تنل اهتماماً كالمشاهير.

. **الإعلام الشعري فى التراث العربي**.. وأظنها دراسة غير مسبوقة كذلك لأنها تؤكد قيام الشعر العربي فى العصور العربية الخمسة الأولي بدور الإعلام من خلال تقنياته وأساليبه ونظرياته.

ـ **مجانين العشق العربي**.. حيث وضعت هنا منهجاً لهؤلاء العشاق المجانين فقدمت العاشق الذى أحب واحدة فقط طوال عمره وأخلص لها.. ثم مات دون هذا الحب.. وروى قصته شعراً.

ووجدت هذا المنهج ينطبق على كثيرين فى عصور الشعر المختلفة حتى العصر العباسي الثاني ابتداء بالجاهلي.. وليس قاصراً على مجانين العشق فى العصر الأموي.

ـ **شعراء العمر القصير**.. حيث وجدت احتفاء أصحاب الموسوعات العربية بالمعمرين والمخضرمين.. أما الشعراء الذين رحلوا قبل الخمسين.. فقد قدمت منهم فى هذه الدراسة عشرة اخترتهم بمعايير خاصة من التراث وعشرة من المحدثين من أنحاء الوطن العربي.. وحاولت تتبع حياتهم لأقف على الأسباب التى أدت إلى رحيلهم مبكراً وتأثير ذلك فى أشعارهم.

ـ ثم أصدرت دراسة بعنوان (نوادر الشعراء فى الظرف والذكاء) وأنا هنا لا يهمني الموقف أو النادرة إذا لم يعبر عنها بالشعر.. فانفتحت أمامي أبواب ظننت أنها جامدة لا تفتح.. وأعدت قراءة الشعراء على مدي قرون الشعر لاكتشف خفايا روحهم الفكهة البعيدة عن الجد والقامة الشامخة.

أمامي أبواب كثيرة ظننت أنها جامدة لا تفتح.. وأعدت قراءة الشعراء على مدى قرون الشعر لاكتشف خفايا روحهم الفكهة البعيدة عن الجد والقامة الشامخة.

. ويجد القارئ دراستين مهمتين أولاهما **{الشعراء والسلطة}** أرصد فيها العلاقة المتوترة دائما طيلة التاريخ العربي حتى اليوم وكيف تراوحت بين القسوة والمهادنة.. أما الدراسة الأخرى فهي **{عشرون من شعراء المنافي والسجون}** وقد ركزت فى هذه الدراسة على الأشعار التى أبدعها الشعراء المعاصرون العرب وهم فى ظل النفي أو خلف جدران السجون.

* وهناك لون رابع من ألوان الإبداع وهو الاقتراب من عقل ووجدان الطفل عن طريق الشعر، فقدمت الشعر للمرحلة الأولي . ما قبل المدرسة . بالفصحى.. وقدمت القصة الشعرية.. وكذا المسرحية الشعرية.

* وهكذا يستطيع القارئ عبر المرحلة الطويلة التى تجاوزت ثمانين كتاباً . أن تجربتي الإبداعية تخلص للشعر والتراث معاً ولكن برؤية عصرية.. بعيدة عن السلفية والجمود.

وربما كان هدفي من هذا هم تجسيد ملامح الواقع.. وجذب المتلقي إلى هويته العربية بعد أن عاني الإحساس بالضياع وانكسار الحلم والبؤس وفقد الحرية.. واختلال الموازين.. وهذا ما عبرت عنه فى كل ما أكتب شعراً أو نثراً.

وربما صعب على الشاعر أن يسير وفق خطة مرسومة مسبقة.. وقد أشار النفاد من دراساتهم عن أعمالي أن أشعاري قد تبلورت فى مثلث متكامل الأضلاع الحب والحلم.. ورؤية الخلاص المتعددة.

أما الحب فهو نابع من داخلي أنا.. وبمقاييسي الخاصة.. وليس بما يرضاه الآخرون.. ويبدو أن الجدية فى حياتي قد فرضت علىّ أن أعلو فوق الصعاب وأحاول التفوق على نفسي.. وكبح عواطفي.. فنظرتي إلى المرأة تبدأ من عقلها.. ذكائها.. وإعجابي بها من هذا الموقع يضفي عليها كل جمال وحسن.. فأنا لا تأسرني المرأة الجميلة المحشوة بالفراغ أو القش.. لأنها ذات جمال زائف غبي.. أما المرأة الذكية فلا يمكن أن تكون قبيحة.. لأن الذكاء هنا والثقافة والعقل والحوار المستمر الذى لا يهدأ.. يشكل فى المرأة ملامح الجمال والأنوثة التى يطلبها الرجل القوى.

إنني أعترف للمرأة بكيانها الاجتماعي والجمالي معاً..

فهي تشارك الرجل كل شئ.. ولهذا فأنا أفضل المرأة التى تجبرني على احترامها وتقدير مواهبها واستقلالها.. ولا أحب المرأة التى تذوب فى الرجل لمجرد أنها أنثي وهو ذكر!!.

وربما يندهش البعض من هذا التصور المثالي.. لكنني . حتى فى حالات الفناء العاطفي . أتطلع إلى المرأة من خلال هذا التصور: فأنا أحب أقدر وأحترم وأجن.. وأنا أمنح المرأة قبلاتي أو لمساتي تقديراً لما حباها الله من جمال.. وهكذا!.

والعاطفة فى شعري تبدأ من تلك العلاقة الخاصة الثنائية بين الرجل والمرأة.. ثم سرعان ما تتطور وتتسع وتتأكد حيث أضفي عليها مزيداً من الألوان والظلال التى تحتوي كل شئ فى الوجود.

إنني أعني بالحب هنا.. هذا الإحساس بالحياة.. وليس مجرد شئ هامشي أو مكملاً لمفردات هذه الحياة.. ولهذا فالحب عندي هو ذلك السباق بين الطرفين فى العطاء.. إنه لا يقبل المساومة.. أو انتظار العطاء.. لأنه يمتلك قدرة لا تحد على هذا العطاء بين الطرفين.. حتى تتقدم بينهما المسافة.. وتسقط الأسوار.. ويصلا معاً إلى مرحلة السمو والغوص والاحتواء والغناء والجنون بلا توقف.. إنه صدق بلا حدود.. صدق فى العطاء.. وصدق أيضاً فى التعبير.. ولهذا فقد يكون الوصول إلى جوهر الحب أمراً صعباً تماماً:

الحب بهذا الزمن المعصوب
لؤلؤة فى حب السيف
وشهاب يلمع فى العينين
لا يشكو الدوران.. ولا يشكو الجهد

(قصيدة سيف الحب بديوان الشوق فى مدائن العشق)

أما القصيدة.. فهي دربي الذى يصل بي إلى مشارف الحب:

أسقطتني القصيدة فى خندق القتل
حتى انتهت لعينيك
هل الذى استشهد الآن
عودُ إلى الرمل.. والطين والخطوة الشاردة
منتهى الحب أن نصل الغمد بالنصل

والنصل بالغمد
والقمر . الدفء . بالليل الباردة
منتهى العقل أن تتخلف حكمتنا الآن
ترفع جلستنا..
ونكف المراوغة الهامدة

(حين أغزو عيونك . ديوان الشوق فى مدائن العشق)

إن عاشق اليوم . فى تصوري . يختلف اختلافاً شديداً عن عاشق الأمس البعيد.. فلم تعد المرأة اليوم وراء الخباء.. تلف نفسها بالصمت والغموض.. ويظل العاشق يرهف حواسه لعله يستمع . خلسة . إلى صوتها أو حفيف ثوبها.. أو تلوح منها ما يفجر من داخله الخيال.. فيناشد النجوم والقمر والرياح أن تراقب حبيبته وتظل معها.. وتحيطها بالراحة والسعادة.

إن المرأة أصبحت (عارية) تسير فى الشوارع. تشارك الرجل فى كل شئ.. ولهذا فإن الشاعر لم يعد يقنعه أن يشبها بالقمر أو يوصي عليها الطبيعة.. عليه إذن أن يبحث عن شئ آخر كامن فيها.. لا تعتريه الحياة العصرية.. من ثم كان عشقي للمرأة يبدأ من هذا الشئ الذى أبحث عنه حتى أجده.. وأظل أعمق نظرتي إليه حتى يصبح عالمي.. وجنوني واحترامي وقدري !.

ويتصل بهذا المحور . الحلم . فالشعراء كلهم حالمون.. مهما أدعوا الواقعية والقصيدة أصدق حلم عند الشاعر.. وشاعر بلا حلم ناظم جاف جامد مطرود من ملكوت الشعر.. لكن حلم الشاعر.. يختلف عن حلم العالم.. فحلم الشاعر لون من التمني الذى يسقطه على الوجود.. أما حلم العالم فقد خطط له من قبل لكي يتحول إلى حقيقة.. وإلا أخفق فى حلمه.. ولهذا فإن أحلام الشعراء كثيراً ما تكون إما من الأحلام الخضراء.. أو الأحلام المستحيلة.

أما المحور الثالث فيكمل شكل المثلث.. وربما يمثل قاعدته أحياناً: وهو (رؤية الخلاص التعددية) وهو بعد معرفي إلى حد كبير ينطلق حيث يعجز الحلم أو يصل إلى طريق مسدود.

إن هذه الرؤية تتفجر بما يشبه التوقع فى النهايات المفتوحة وترتبط ليس بالخلاص الشخصي وإنما هى أصلاً تبدأ من الخلاص الجماعي.. باعتبار الشاعر واحداً من هذا الموجوع.

وتتعدد فى أشعاري رؤى الخلاص والتى تبدأ من الهروب إلى الحب.. حتى آخر الطرف الآخر.. الهروب إلى الموت.. وبينهما تتعدد (الخلاصات) والتى تتكئ دائماً على تلك المتغيرات ومفردات الحياة التى تواجهني كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة.

أما علاقتي بالنقاد.. فقد بدأت منذ أول قصيدة منشورة لي (١٩٦٤) وقد كتب عني وناقشني كثيرون أذكر منهم:

د. عبد القادر القط . صلاح عبد الصبور . د. عز الدين إسماعيل . د. أحمد كمال زكى . د. صلاح فضل . د. عبده بدوي . د. شوقي ضيف . د. عبد العزيز حموده . د.محمد عناني . د. ماهر شفيق فريد . د. صبري حافظ . أنيس منصور . د. حامد أبو أحمد . د. عبد العزيز شرف . د. مصري حنوره . د. محمد حسن عبد الله . د.يوسف نوفل . د. أنس داود . د. حسين على محمد . د. صابر عبد الدايم . د. محمد زكريا عناني . د. فوزي عيسي . د. سعد أبو الرضا . بدر توفيق . على عبد الفتاح . د. محمد عبد المطلب . د. أحمد زلط . فوزي خضر . وآخرون كثيرين.

والآن فإن تجربة الشعر الحديث تمتلك القدرة على استشراق آفاق لا تحد ولا تعد.. منها المسرحية مثلاً.. والملحمة.. والدراما القصصية وغيرها.. وأنا هنا أصارح القارئ بقلقي الشديد على مستقبل الشعر.. بعد أن سادت الساحة تحت مسمي (التجريب . الحداثة . الحساسية الجديدة . ال.. ال..) تلك البدع التى تبناها بعض شعراء الجيل الجديد.

إن ساحة الشعر تعاني خللاً شديداً.. وبدعاً تطغي على الإبداع.. ووجعاً بلا دواء.. ومهاترات بلا طائل.. لا تليق بالشعر والشعراء.. تتيح لأعداء الشعر أن يصرخوا: هذا عصر الرواية.

فهل نحن الشعراء راضون عن ذلك ؟

إنه سؤال بمثل وخزاً حقيقياً فى جسد الشعر العربي الحديث وعلينا أن ننتشله من هذا الألم العميق.

السيرة الذاتية

- مواليد: ١٩٤٢ بيلا / كفر الشيخ . مصر
- بكالوريوس تجارة ١٩٦٦
- مدير عام النشر بدار المعارف (١٩٧٧.١٩٩٥)
- نائب رئيس تحرير مجلة أكتوبر (١٩٩٥.٢٠٠٢)
- مستشار النشر بدار المعارف (٢٠١٤-٢٠١٥)
- مدرس مادة أدب الأطفال . كلية تربية حلوان (١٩٩٠.١٩٩٥)
- مدرس مادة نشر الكتاب بأكاديمية أخبار اليوم (٢٠٠٣.٢٠٠٦)
- عضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة/ عضو شعبة الآداب بالمجالس القومية المتخصصة
- عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب عضو نقابة الصحفيين/ عضو مجلس إدارة جمعية الأدباء (رئيس مجلس الجمعية)
- رئيس تحرير سلسلة الإبداع الشعري المعاصر (الهيئة العامة للكتاب)
- رئيس تحرير سلسلة مختارات (الهيئة العامة لقصور الثقافة)
- جائزة المجلس الأعلى للفنون والآداب لشعراء الوطن العربى الشباب { ١٩٦٥ / ١٩٦٦ }
- كاس القبانى فى الشعر ١٩٦٧ . سكرتير لتحرير مجلة الشعر { ١٩٧٦ / ١٩٧٧ }
- جائزة الدولة التشجيعية فى الشعر ١٩٨٩ . الدكتوراه الفخرية فى الآداب من الأكاديمية العالمية للثقافة والفنون ١٩٩٠ " كاليفورنيا " . جائزة كافافيس ١٩٩٢ . جائزة أندلسية للثقافة والعلوم ١٩٩٧
- جائزة الدولة للتفوق فى الآداب ٢٠٠٦.
- جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ٢٠١٦
- مثل كتاب مصر وشعراءها فى المهرجانات الدولية والعربية.

<u>الأعمال الشعرية</u>

* الطريق والقلب الحائر	دار الكاتب العربى	١٩٦٧
* الهجرة من الجهات الأربع	مؤسسة التأليف والنشر	١٩٧٠
* البحث عن الدائرة المجهولة	دار الناشر العربي	١٩٧٣
* الليل وذاكرة والأوراق	مكتبة مدبولي	١٩٧٧
* الخروج إلى النهر	هيئة الكتاب	١٩٨٠
* السفر والأوسمة	دار الشروق	١٩٨٥
* العطش الأكبر	مكتبة مدبولي	١٩٨٦
* الشوق فى مدائن العشق	هيئة الكتاب	١٩٨٧

* قراءة فى كتاب الليل	دار الشروق	١٩٨٩
* الأعمال الشعرية جـ ١ (٨ دواوين)	هيئة الكتاب	١٩٩٢
* شظايا	دار الشروق	١٩٩٣
* الزمان العصىّ	هيئة الكتاب	١٩٩٥
* الرحيل إلى المدن الساهرة	هيئة قصور الثقافة	١٩٩٧
* لزوميات	هيئة الكتاب	١٩٩٧
* الأعمال الشعرية جـ ٢ (٥ دواوين)	هيئة الكتاب	١٩٩٩
*المختارات الشعرية	هيئة الكتاب	١٩٩٩
* جناحان الى الجوزاء	دار قباء	٢٠٠٠
* رعشة فى الأفق	دار الشروق	٢٠٠٢
* صرخات فوق قبة الأقصى	هيئة الكتاب	٢٠٠٢
*عرس النار	هيئة قصور الثقافة	٢٠٠٥
*قراءة فى أوراق الغياب	هيئة الكتاب	٢٠٠٧
*الدوائر	هيئة الكتاب	٢٠٠٨
*الوجوه والمرايا	هيئة قصور الثقافة	٢٠١٠
*تراتيل الغضب	هيئة الكتاب	٢٠١١
* ما لم يقله السندباد	دار الأدباء	٢٠١٥
		٢٠١٦
* حيرة الأسئلة	دار مها	٢٠١٨
* ديوان أحمد سويلم ٤ جـ	هيئة الكتاب	٢٠١٧

المسرح الشعرى

* أخناتون	دار المعارف	١٩٨٢
* شهريار	هيئة الكتاب	١٩٨٣
* الفارس	هيئة الكتاب	٢٠٠١/١٩٩٥
* الأعمال المسرحية (٣ مسرحيات)	هيئة الكتاب	١٩٩٩
*المجهول المعلوم	هيئة الكتاب	٢٠٠٩

دراسات

* شعرنا القديم رؤية عصرية	المجلس الأعلى للثقافة	١٩٨١
* المرأة فى شعر البياني	هيئة الكتاب	١٩٨٤
* أطفالنا فى عيون الشعراء	دار المعارف/ هيئة الكتاب	٢٠٠٢/١٩٨٥

* محمد الهراوى شاعر الأطفال	المركز القومي لثقافة الطفل	٢٠٠٨/١٩٨٦
* التربية الثقافية للطفل العربى	مركز الكتاب للنشر	١٩٩١
* مسلمون هزموا العجز	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩١
* عظماء أغفلهم التاريخ	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٣
* مجانين العشق العربى	أخبار اليوم/ نهضة مصر	٢٠٠٦/١٩٩٣
* الإعلام الشعري فى التراث العربى	هيئة الكتاب	١٩٩٥
*الفكر الإسلامي فى ثقافة الطفل العربي	مركز الكتاب	١٩٩٧
* محمود سامى البارودى	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
* قيس بن الملوح	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
* عنترة بن شداد	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
* شعراء العمر القصير (٢ج)	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٠
*ديك الجن	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٢
* نوادر الشعراء فى الظرف والذكاء	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٢
*ثقافتنا فى مفترق الطرق	الشروق الدولية	٢٠٠٤
*الشعراء والسلطة	دار الشروق	٢٠٠٥
*الشعراء والرسول	دار الهدي	٢٠٠٥
*شعراء كتبوا للأطفال	وزارة الشباب	٢٠٠٦
*عشاق الحياة	سفير	٢٠٠٧
*حكاية الأيام والشهور	سفير	٢٠٠٧
*مختصر مجمع الأمثال للميداني	هيئة الكتاب	٢٠٠٨
*عشرون من شعراء المنافي والسجون	دار الطلائع	٢٠١١
*موسوعة الشعراء العرب الأسماء والألقاب والكنى	دار العالم العربي	٢٠١١
*فى شبابهم صنعوا التاريخ	دار المعارف	٢٠١٢
*الشعراء فى مجالس الخلفاء	دار الكتاب	٢٠١٤
*إطلاله على عالم البراءة	دار المعارف	٢٠١٤
*عباقرة الصبر والإرادة	دار دلتا للنشر	٢٠١٥
*شعراء الأسر والسجن فى التراث العربي	دار الشارقة	٢٠١٦
*استلهامات ألف ليلة فى الشرق والغرب	هيئة قصور الثقافة	٢٠١٦
* شاعرات العشق العربي	المكتب المصري للمطبوعات	٢٠١٨

الأطفـال

* حكايات من ألف ليلة وليلة (٥ حكايات)	دار الشروق	١٩٨٠
*عشر مسرحيات شعرية	مؤسسة الخليج العربي	١٩٨٧
* حكمة الأجداد (قصص ٣٠ مثلا عربيا)	مؤسسة الخليج العربي	١٩٨٩
*أبو العلاء المعرى	دار المعارف	١٩٩٣
*مدائن إسلامية (٨ كتب)	سفير	١٩٩٣
* طفولة عظماء الإسلام (٨ كتب)	سفير	١٩٩٣
* أتمنى لو (قصائد)	هيئة الكتاب	١٩٩٤
* ديوان الطفل ما قبل المدرسة	التربية والتعليم	١٩٩٥
* بستان الحكايات (١٠ قصص شعرية)	قطر الندي	١٩٩٦
* ديوان الفتى العربى جـ ١	دار الشروق	١٩٩٧
* تعالوا نغنى حروف الهجاء	المكتب العربي للنشر	١٩٩٧
*قصائد للأطفال	الدار الثقافية	٢٠٠٢
*أحب أن أكون (شعر)	الدار الثقافية	٢٠٠٢
* أنا وأصدقائي (شعر)	هيئة الكتاب	٢٠٠٠
*المسرح الشعري للأطفال (٥مسرحيات)	دار الكتاب اللبناني	٢٠٠٢
*فلسطين عربية (شعر)	نهضة مصر	٢٠٠٤
*يقول المثل العربي (شعر)	دار الشروق	٢٠٠٤
*واحة الحيوان (قصص شعرية)	قطر الندي	٢٠٠٥
*أحلامي (شعر)	هيئة الكتاب	٢٠٠٥
*أنا أحب الحياة (١٠ كتب)	دار البستانى	٢٠٠٧/٢٠٠٦
*سير وملاحم عربية (٥كتب)	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٧
*رحلة فى قطار الشعراء (للشباب)	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٧
*حكايات وأغانى أحمد شوقي	دار الهلال	٢٠٠٧
*يحكى أن (قصص شعرية) ١٠ قصص	نهضة مصر	٢٠٠٧
*عالم الحيوان للصغار	هيئة الاستعلامات	٢٠٠٨
*ديوان شوقي للناشئة	دار الشروق	٢٠٠٨
*حكاية الفرعون الصغير	دار الشروق	٢٠٠٨
*المعجم الصغير	دار الشروق	٢٠٠٨

*حكايات من الشرق والغرب	الناشرون المتحدون	٢٠٠٩
*أمثال وحكايات	الناشرون المتحدون	٢٠٠٩
*أيها الشاب المحب	المجلس القومى للشباب	٢٠١٠
*أحلامى الجميلة (شعر)	هيئة الكتاب	٢٠١٠
*أشهر الأساطير والملاحم الأدبية	دار العالم العربى	٢٠١٠
*أشهر العقائد الدينية فى العالم القديم	دار العالم العربي	٢٠١١
*ديوان الطفل العربي	هيئة الكتاب	٢٠١٥
* حكايات شعية للأطفال	دار العالم العربي	٢٠١٩

ahmedswelam42@gmail.com

المحتويات

– هذه المذكرات

الفصل الأول:

– مذاكرات الطفولة

– البداية

– أحلام كبيرة فى عقل صغير

– الفتي.. والبيت البسيط

– براءة الدهشة

– ندوة الشيخ عبد الهادي

– صندوق الحكايات

– نبضة قلب فى غير وقتها

– شجرة التوت

– الصديق جرجس

– هواجس صغيرة

– ابن الملك

– قصيدة تشعل مظاهرات

– تخصص إنجليزي

– نقلة لتحقيق الحلم

– الشعر.. هذا السلطان

الفصل الثاني: شاعر تحت السلاح

الفصل الثالث: فى قلب الحركة الثقافية

الفصل الرابع: الشاعر السندباد

الفصل الخامس: شخصيات القامات العالية

– أنيس منصور.. والقلم الرشيق
– توفيق الحكيم.. واليقظة الفكرة
– يحيي حقي.. وسيفونية العشق
– صلاح عبد الصبور.. الشاعر الإنسان
– د. عبد القادر القط.. شيخ النقاد
– العقاد.. وشموخ الشخصية
– سعد الدين وهبة.. الفارس الذى مات واقفا
– عبد الرحمن الشرقاوي.. القامة الشعرية العالية
– طاهر أبو فاشا.. آخر ظرفاء العصر
– أحمد مستجير.. وزراعة الفقراء
– محمد المعلم.. الفارس المعاند
– شخصيات أخري
الفصل السادس: تجربتي الإبداعية
السيرة الذاتية